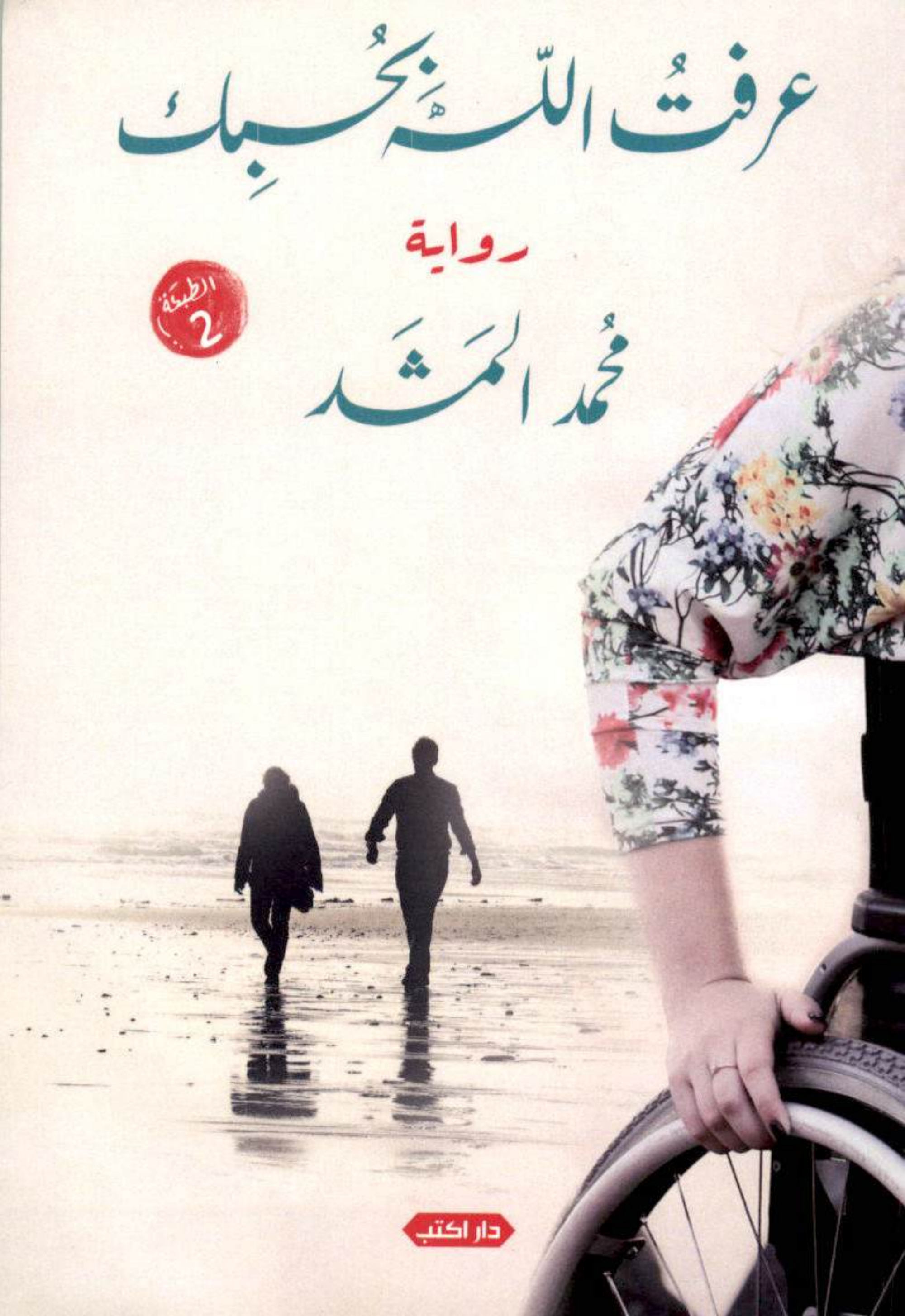

عرفتُ اللّهَ بحُبك
رواية
الطبعة 2
مُحمد المَشَد
دار اكتب

عَرفتُ اللهَ بِحُبِّك

عَرفتُ اللهَ بِحُبِّك

محمد المشد

الطبعة الثانية ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 3434 /2017

I.S.B.N: 978-977-488-512-9



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

عَرفتُ اللهَ بِحُبِّك

رواية

محمد المشد



دار اكتب للنشر والتوزيع



إلى الذين ألهموني..

إليك ..

بصوت فيروز: "عرفتُ اللهَ بِحُبِّك"



الحبُّ أسمى العبادات

وأهم شروط العبادة " الطهارة والنية ".. لا تعقيد في العبادة.. لا تعقيد في الوصول إلى الله تعالى .. والحب هو الطريق الوحيد إلى الله .. كل شيء خُلقَ بحبٍّ وللحب..



ومضة

"بَشَهِّدْكُم يوم فرحي.. إتجوزت رحمة لأنها رخيصة .. أوي".

كلمات قالها نضال للمدعوين فور دخوله قاعة الأفراح، وهو يدفع عَرُوسُه على كرسيها المتحرك..

ولكن .. كيف ..؟!

كيف يقول هذا الكلام في اليوم الذي من أجله تقدم **35** مرة لخطبة حبيبته ..!! ولم يملّ رفض أهلها له..

بعد قصة حب استثنائية بملامح عربية بين ضفاف المقابر!

كيف ..!!



1

لا يُسمع إلا طقطقة كعب فتاة مثيرة..

صمت رهيب.. الجميع يكتم أنفاسه منهمكين في مهمتهم..

ترتكز الكاميرا على قدميها، فالمخرج وضع خطة ألا يترك للمشاهد لحظة إلا في تأمل القدمين شبه العاريتين إلا من فستان يتوِّج أنوثتها فوق ركبتها.. ما زالت الكاميرا تعلو ببطء من قدميها مرورًا بركبتها إلى بطنها، وفجأة.. تثني جذعها للأمام فيتدلى للكاميرا مفاتنها من بين ما تبقى من الفستان.. غمزة من عين الفتاة، وقُبلة على كفها تنفخها برفق في عين الكاميرا كفيلة بخروج ألسنة معظم الرجال متدلية خارج أفواههم.. لذا.. انطلق صوت المخرج cut لتبدأ الأنفاس أخذ مسارها الصحيح داخل صدور فريق العمل بالأستديو.

تقترب المطربة من نضال تجلس جواره بدلال الساقطات المحترفات:

– طمني.. أنفع ولا؟

يرد نضال:

مش هقول غير الله يكون في عون الشباب اللي هيتفرجوا على الكليب.

تنطلق ضحكة المطربة لتوحِّد خواطر أفراد الأستديو قائلين بلسان حالهم "ياريتني المخرج"، يقف نضال دون تأثر ينادي:

– شكري.. جهّزلي المشهد إللي بعده.

يتوجه للبوفيه، وقبل أن يصل ينادي مبتهجًا:

– عارف يا حموكشه لو مكنتش حطيت قهوتي ع النار هحطك مكانها.

يرد حموكشه:

– يا باشا ما أقدرش.. ده عيني بتبقى ع التصوير ومع كلمة **cut** القهوة بتسخن من الفرحة.. دقيقتين، وتبقى في فنجانك.

نضال:

– حبيب قلبي.. عقبال ما نشربها في بيتك من إيد عروستك.

حموكشة:

- بشرط.. تبقى قطعية شبه الموزز بتوع إعلاناتك، وكليباتك يا سلطان حريم السلطان.

نضال:

هو إللي بيطلعوا في كليباتي جايين من المريخ..!! مهم نفس البنات العادية الفرق المخرج بيظهر جمالهم بتركيز الكاميرا على الجزء اللي عايز المشاهد يولع منه ،ويخلّي البت تأدّي أداء يشد المشاهد لحد مايلزق في التليفزيون.. إنت طبّق الكلام ده مع أي بنت خلي عينك الكاميرا، وإنت مخرج لنفسك.. ما بالك بقى لو كمان بتحبها..! المطافي مش هتلحق تطفي الولعة.

حموكشة:

- منك نستفيد يا أستاذ، وآدي القهوة.

انتهى التصوير لكليب ينتظر أن يكتب عليه إخراج نضال عبد الحق.. شاب يشعُّ تفاؤلًا لكل من حوله، وكالعادة في نهاية كل تصوير يأتي أحد النجوم يُسلّمون عليه يسألونه:

- راكن عربيتك فين؟

فيرد ساخرًا :

- في موقف الميكروباصات.

تلك الشخصية التي تُغلّف غطرستها بالفكاهة تأبى أن يُشفق عليها أحد بتوصيله.. عاد كالمعتاد بميكروباص فبرغم انطلاق اسمه في الآفاق لا يمتلك حتى ثمن أجرة التاكسي لا يمتلك سوى عقله واسمه الذي يرتفع يوميًّا في سماء الفن دون مال.. لذا يعيش في غرفة على أحد الأسطح يطلق منها إبداعه ويوهج بريقه ..

فالقصور والعقارات لا تعطي بريقًا لأصحابها إلا في أعين السفهاء، فبريق كل إنسان بإنجازه ومدى احتياج الناس لما سيقدمه لهم بعد وقت تفكيره، وخُلوته..

***

عمَّت السكينة أجواء الميكروباص بصوت تلاوة القرآن للقارئ المنشاوي..

ارتسمت بسمة المسافر في عقله لذكريات كانت يومًا على نفس الصوت.. تذكّر أمه، طفولته، لعبه مع أقرانه، جلوسه في البلكونة ساعات يصنع طائرة ورقية. كل هذا على خلفية صوتية للمنشاوي ينطلق من المسجل الموضوع في المطبخ لتسلية أمه وهو طفل واقف على أطراف أصابع قدمه ممسكًا طرف طاولة المطبخ بيديه، ولا يكاد يظهر من سطحها حجباه وعيناه، يُشاهد أمه تزين التورتة وهي في ريعان شبابها ..

يكمل المنشاوي القراءة ..

يدخل على أمه حجرتها وهي نائمة وقد صار شابًّا وهي مسنة، يوقظها مقبلًا رأسها جالسًا بجوارها، يضع الحلوى في فمها ويسقيها العصير ..

يااااه! كيف لذكرياتنا أن تحضر لمجرد سماع صوتٍ ما؟ أو الدخول لمكان ما؟ حتى روائح الأشياء تنادي الذكريات.. لكأن عقولنا تحاصرها أيامنا لكنا لا نراها إلا عند ملامسة مشاعرنا فتخرج طاقة الحب الكامنة لتقوم بدورها وقودًا يقطر أيامنا الماضية على قضيب الفرح أو الحزن..

يااااه! كيف صار واقعنا ذِكْرى؟! أمه التي لم ينتهِ صوتها من مسامعه صارت ماضيًا طواه الزمن.. صور سريعة في شريط عقله.. جعلته يستوحش أمه التي صارت تحت التراب متذكرًا كلماتها: "إياك لما أموت تكسل تزورني .. بيقولوا الميت بيحس بحبايبه ويفرح بزيارتهم."

دخل غرفته وعقله لم يخرج من محيط ذكرياته.. شغَّل اللاب توب، كل هدفه أن يستكمل استرخاءه في ذكرياته وطاقته الروحية في أعلى مراتبها..كتب في اليوتيوب المنشاوي، وهام ممدِّدًا جسدة على الأريكة.. رن هاتفه الموضوع على المنضدة رمقه حتى أنهى رنينه وعاد ببصره لحاله.. رن الهاتف ثانية.. فقام إليه ليجد المطربة الشعبية نعناعة.

نضال:

– نعانيعو المنعنعة.

نعناعة:

– يا واد ياتقيل هتتحايل عليك عشان ترد.

نضال:

– شويه من اللي بتعملية في معجبينك.

نعناعة:

– ماشي ماشي.. إيه ده أنت في عزا، ولاّ إيه؟

نضال:

– لا في البيت.. خير!

نعناعة:

– أصل في صوت قرآن شغال جنبك فقولت عزا.

نضال:

– أعوذ بالله.. هو كلام ربنا للعزا والحزن بس!.. ده ومن غير حلفان بشرفك أنا مشغله عشان فكري بأسعد أيام حياتي.

نعناعة:

– أسعد أيامك لما تخرجلي الكليب الجديد.. بحضر تسجيل الغنوة، وهجيلك نسمعها سوا، ولا خلاص اتمشيخت، وقاعد تسمع قرآن!

نضال:

– بطّلي تريقه يا غازية.

نعناعة:

– أيوه غازية، وبرعش البلد بهزة وسطي ديه.

انتهت المكالمة، ودبَّت صاعقة بعقل نضال أحس بغيرة داخلة على الصوت الذي أيقظ ذكرياته كيف يكون مربوطًا في أذهان الناس بالحزن!

أحسَّ بالحماقة حين سأل نفسه:

– من ربط القرآن بالحزن!

فهو شخصيًّا أحد صناع هذا الربط بكمية المشاهد التي صورها لعزاءٍ ووضع القرآن خلفية صوتية.. شعر بالحماقة.. أحس نفسه جزءًا من جريمة ربط كلام الله بالحزن مع أن الله أنزل جميع الكتب السماوية لإسعاد الناس.. فقط إسعادهم .

نام، وقد عزم النية على زيارة قبر أمه في الغد.

***

2

آية محفورة أعلى بوابة المقابر: "كل نفسٍ ذائقة الموت".

تمهَّل من رهبة المكان، وهو يهرس التراب بقدميه.. هذا التراب من المؤكد كان إنسانًا يومًا ما.. وصل قبر أمه.. توقّفت عيناه خاشعتين على اللافتة المكتوب عليها اسمها.. سمع أنينًا مكتومًا لم يُعرهُ أهمية، ورفع يديه يدعو، فأحسها تحتضنه، فعتاب الأم حضنها، وصوت الأنين لا ينقطع.. أحس أمه تسأله:

كيف غبت تلك الفترة الطويلة؟ وكيف حال أبيك؟

فأدار وجهه هربًا منها وقلبه يلفظ:

"أمي..جئت لزيارتك، والدعاء لك، وكفى"

أخذ خطوةً للخلف ليجلس على حجر..

فاقترب أكثر من صوت الأنين، ونظر خلفه لم يجد أحدًا. نَبَضَ الخوفُ داخله.. تحرّك خطوات حوله.. ليجد قبر أمه يُخفي خلفه جنة لبثت ثوب حداد.

فتاةٌ تجلس أمام قبرٍ ترويه بحزنها.. اقترب منها رويدًا رويدًا، وأنينها يزلزله،شهقاتها تسرع دقات قلبه، ولا يعرف لماذا يقترب، لكن أجسادنا أسرع تنفيذًا لقدرها من استيعاب عقولنا السبب.

همَّ بالكلام، ولكن ماذا يقول؟!

وجهها مدفون بين كفيها وشعرها مستور بحجابها. اقترب أكثر.. أخرج منديلًا، مَدَّ يده به قائلًا:

- تفضّلي.

لم تسمعه، ولم تشعر بوجوده.

منعه حِجابُها من وضع يده على كتفها، وعفتها هالةٌ تمنعه من الاقتراب أكثر، كرَّر بصوت أعلى:

- تفضّلي.

انتفضت مفزوعة.. مبتعدة.. مرعوبة..قائلة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إنت مين؟

لمحت الشفقة في ملامحه، تيقّنت دون أن يتكلم أنه ليس لصًّا أو عفريتًا..لم يجبها بكلمة، مد المنديل يستوعب ما يحدث، فلمجرد كشفها وجهها تفرَّس فيها معاني ظلمها الكلام..حمرة وجهها، وأنفها وعيناها المدبوحتان حبًّا تبرهن أن الوفاء عبارة عن خليط من المشاعر لم يعطها مسماها اللفظي حقّها في تجسيدها.. مشاعرها المتوجة بملامحها..خطفته.

ليسمع صوتها ثانية يخرج من بين شهقاتها:

- شكرًا.

ومسحت وجهها بيد ترتعش.

مدَّ لها منديلًا آخر، وأومأ برأسه تفضَّليه.. أخذته باستحياء، سحب نضال سحبة موجٍ خطفَ قوقعة من الشاطئ للبحر.. لتوهان قاعه.

نضال:

- أقدر أساعدك بإيه؟

الفتاة:

- متشكرة جدًّا لحضرتك.

وكان أول نداء "حضرتك".. لم تدرِ وهي تقولها إنها ستناديه قريبًا.. "صديقي الصدوق"، وأنه هدية الله التي أنبتتها دموعها على قبر أبيها.. لم تدرِ، وهي تخاطبه كنكرة أنه سيكون التعريف الحقيقي الأوحد لها.

نضال:

- إحنا في مقابر يعني غلط تكوني كده لوحدك.

الفتاة:

- متعوّدة على المكان أكتر من بيتنا من يوم ما بابا الله يرحمه مات.

نضال:

- يعني ده الطبيعي بتاعك؟

الفتاة:

- ده ميعادي مع بابا كل خميس زي ما كان بيفسحني.

لم يخنه التعبير حين رأى معاني الوفاء تكمن في ملامحها قبل أن تنطق.

حاول مجاهدًا تقديم أي مساعدة.. تمنعت.. ثم تجاهلت، ولأول مرة بعد أمه يشعر ببراءة انجذابه لاحتضان شخص دون شهوة.. غادر المقابر معاتبًا نفسه كيف لم يكن وفيًا لأمّه وانقطع عن زيارتها فترة طويلة!

أثّرت فيه الفتاة، وجودها في نفس المكان جعله نقيًّا، سلبه خبائث نفسه، طلّتها لم يصفها بذلك الشيء الذي ينكره "الحب من النظرة الأولى".. فقط.. طلّتها جعلته نقيًّا كيوم ميلاده.

***

3

في إحدى إشارات مرور عاصمة الزحام قاهرة المعز لدين الله الفاطمي تقف سيارة ضمن الكثير ينتظرون إشارة المرور بفتح الطريق..

خبطات على الزجاج المجاور للسائق لسيدة تحمل طفلًا على كتفها، وتمدُّ يدها طلبًا للمال، فتح عبد الله الزجاج أعطاها مبلغًا زهيدًا من النقود الفضية، ثم أغلقه ونضال في المقعد بجواره يتأمل ما يحدث مذ كانت المتسولة تطرق زجاج عربةً بجوارهما حتى اقتربت لعربتهما وحدث ما حدث..

نضال:

- تفتكر طفل متربّي على كتف شحّاته، وطول اليوم شايف الحياة تسوّل، وبيتربى على استعطاف الناس، والذل.. يا ترى لما يكبر هيكون إيه؟ وهيحلم إزاي؟

عبد الله:

– ابن الوز عوّام.. مش محتاجة تأملاتك، ولا لحظة تفكير حتى.

نضال:

– لا.. محتاجة تأملات أوي كمان.

عبد الله:

– ليه ناوي تعمل فيلم عن الشحّاتين؟

سحب نضال نفسًا بطيئًا عميقًا، وأرخى ظهره على مسند كرسيه المفرود لمستوى يشبه النوم واضعًا يديه خلف رأسه شاخصًا ببصره في سقف السيارة غير منتبهٍ لبداية تحركها وبكل هدوء:

نضال:

– أصل الطفل ده جسّيته مثال لشعب اتربّى على كتف وطن شحّات من أول ما فتح عينه على الحياة، ووطنه بيتسوّل يخبّط على إزاز كل دولة عشان تديله معونة .

عبد الله:

– لولا متأكد إنك مش بتدخن كنت قولت رافع برشامتين.. إيه كلام المصطبحين ده؟!

نضال:

- ليه كلامي غلط يا مُعلم الأجيال؟

عبد الله: ضيف عليه كمان.. الطفل ده مطلوب منه لما يكبر يبدع، ويبقى ليه بصمة في العالم.

نضال:

- من ناحية هيبدع فهو هيبدع.. لكن في التسوّل.

عبد الله:

- تفتكر لو طفل اتربى في أسرة فقيرة لكن عندها كرامة، وعزّة نفس.. هيُبدع لما يكبر؟

نضال:

- محدّش ليه ذنب يتولد فقير.. لكن ذنبه لو عاش غبي فمات فقير من كل حاجة فلوس أو علم أو أي قيمة تثبت أنه عاش، وبعدين الإبداع بالتربية مش بالغنى.

طال حوارهما، وتصوراتهما الفلسفية حتى وصلا ساحة كبيرة أمام مقهى شعبي يتوسطه شجرتان ملفوف عليهما خرطوم يُضيء بكل الألوان المستمتعة لصوت خافت صادر من سماعات أعلى الشجرة لأم كلثوم، وفي آخر الساحة ينتظرهم أصدقاؤهم.. شلة تربّت معًا منذ الطفولة لنفس المنطقة السكنية، ومعظمهم لنفس المدرسة مختلفون في كثير من حياتهم لكل منهم فكره الخاص لكن تجمعهم ذكريات الطفولة،

وصراع الشباب وانجذاب القلوب.. وقف الجميع لاستقبال عبد الله، ونضال بسلامات، وقُبل لجوٍّ مفعم ببهجة الشباب.

نضال:

- مسا مسا على الناس المهيسة.

إبراهيم:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. يا عم خد ثواب تحية الإسلام.

عبد الله:

- الله الله.. بدأ فيلم فجر الإسلام مع مولانا هيما.

مينا:

- خُش في لحم أخوك.. واحشني كيك يا عبده.

عبد الله:

- حبيبي حبيبي.. خش عليّا خش.

حسين:

- انجز يا برنس النسوان الجامدة مش هفضل مستنيك لما توصلّي آخر الترابيزة.. هعد.

جلس الجميع مهللين فرحين، وصوت ضحكاتهم يحجب صوت التلفاز القريب منهم.

مينا:

– وائل.. تعالى شوف الأستاذ، والفنان هيشربوا إيه.

يقترب وائل بعد أن مسح ترابيزة، ووضع الأكواب الفارغة في صينية صغيرة على يده.

وائل:

– منوّرين يا رجالة.. مين قال يشرب إيه؟

عبد الله:

– ليمون بالنعناع، وكتّر التلج أوي.

نضال: – هاتلي قهوة زيادة.

وائل:

– مين قال يشرب إيه تاني؟

حسين:

– عايز أطلب حاجة بس خايف إبراهيم يقيم عليا الحد، ويجلدني.

وائل:

– ما عندناش خمرة.. اطّمن.

إبراهيم:

– أعوذ بالله من غضب الله.. اتق الله يا أخي.. حرام تعود لسانك على المنكر، ولو بهزار.

وائل:

– ياعم انجز هتشرب إيه.. قبل ما يبدأ الخطبة.

حسين:

– لا مؤاخذة هات أم علي.. لا مؤاخذة تاني.. هاتها.. سخنة.

نضال:

– يا أخي اطّمن.. طالما هيجيب معاها ابنها علي مِحرم يبقى حلال حلال مهما كانت سخونتها.

إبراهيم:

– وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا.

مينا:

– صدق الله العظيم.. قبل ما نطلّع واحد على المسرح، وننسى.. عرّفونا بقى اتأخرتوا ليه؟

عبد الله:

– كنت بشتري كاميرا هدية لمراتي لعيد ميلادها، وكان لازم آخد معايا وَحْش الإخراج.

إبراهيم:

– أعوذ بالله.. عيد الميلاد بدعة، وحرام يا عم الشيخ.

عبد الله:

– يا عم هادوا تحابوا، وطالما النبي عليه الصلاة والسلام أباح الكذب بين المتزوجين في غزلهم.. ما بالك لما أعملّها حفلة أفرّحها إن يوم ميلادها غالي عندي!

إبراهيم:

– لا تجادل.. ليس في الإسلام سوى عيدين.. عيد الفطر، وعيد الأضحى.

عبد الله:

– دي أعياد دينية..مافيش تعارض بينها، وبين الأعياد الوطنية أو أي افتكاسة تفرحنا.

مينا:

– طبعًا لو قولت رأيي هتبقى فتنة طائفية هههههههههههه.

نضال:

– قول رأيك للي هيناقشك.. لكن إوعى تقوله لإبراهيم هيسلمك لداعش.

حسين:

– وربنا انتوا مفروض تبدّلوا.. معرفش ازاي إنت يا هيما مهندس ومتخرج من auc، وعبد اللهِ الشيخ الكاجوال خرّيج أزهر، ومدرس عربي! والأغرب إنك يا إبراهيم عمرك ما ربيت دقنك، ولا لبست جلابية.. عكس عبد الله!

عبد الله:

– أمثالك يا نضال.. خلّيتو دي (وأمسك لحيته) رمز التخلف، والإرهاب.

نضال:

– يا حاج عبده.. استهدى بالله هتخليه يغتالني حالًا.

ما بين ضحكهم، وجدهم، وغيامة دخان الشيشة، ونزول المشاريب، وصوت خبط كروت الدومينو بدأ عرض كليب "دح وأح" للمطربة نعناعة. فصاح نضال مقاطعًا الجميع:

– خلاااص امنع الكلام، واتفرجوا على كِليبّي الجديد.. تقدر تغمض عينك يا مولانا.

إيماءات، وإيحاءات تقشعر المتفرج بأوضاع سريعة وبطيئة لنعناعة ليس لها معنى سوى إبراز مفاتنها بأكبر قدر.. ثم بدأت تتمايل بنبرة خليعة تغني:

" الواد فاهمني صح.. لسعلي قلبي أح.. كل ما أشوفه أسح.. آه يا ناري .. دح الدح".

تحوّل حديثهم لنقد الكليب بين مدح حسين، وفرحة أن صديقه مخرج لتلك الفتيات التي يصفهن "نسوان تشبّع"، وأكمل:

– وجه الشبه بين كليباتك، وكنتاكي.. إنتوا الاتنين تجارتكم وراك، وصدور".

وما بين اعتراض إبراهيم بغلظه تجاوزت الشجار بأحكام دينية، وآيات صارمة تبُيح الدماء بأسلوب غليظ فظٌ، وأبرز ما علق بذهن نضال من كلماته:

– أنت مُفسد في الأرض، وقتلك واجب ديني".

فأجابه نضال:

– مهو مصطفى العقاد قتلوه أمثالك لإنه مؤلف، ومخرج فيلم الرسالة بالعربي والإنجليزي، وكمان أخرج فيلم عمر المختار.. إنتوا بتحاربوا الكويس قبل الوحش، ومش شايفين غير نفسكم صح كأن الدين منبعه فكركم، واللي يعارضكم كافر ومُفسد.

وما بين نُصح عبد الله، وحلمه في الأسلوب، وما بين اعتراض مينا، وإحراجه مشاهدة أمثال هذه الأعمال مع أهل بيته، وإخوته البنات

خاصةً.. فالكليب لا يصح دينيًّا أو أخلاقيًّا لمجتمع شرقي..انتهت السهرة، وغادر الجميع ..

ركب نضال مع عبد الله ليوصله أقرب مواصلة تقله إلى بيته.. رن هاتفه.

عبد الله:

– حبيبة قلبي.. أنا في الطريق أهو.. تمام تمام.. بوصّل صاحبي، وهروّح علطول.. لا مش هتأخر.. هاهاهاه.. أيوه هوّ مافيش غيره.. استهدي بالله.. خلاص.. سلام.

أغلق الهاتف، وانفجر ضاحكًا مع نضال الذي كان يخرج لسانه وقت المكالمة، ويُرقص له حاجبيه.

نضال:

– الشبشب هايترفع عليك النهارده.

عبد الله:

– كله بسببك.

نضال:

– كنت قول بوصّل أي حد تاني ما أنت عارفها مش هتعديهالك على خير طالما بتوصّلني.

عبد الله:

– وليه أكدب؟!

نضال:

– أنت حر.. خلّيها تدب خناقة معاك كل ما نتقابل.

عبد الله:

– فاكر لما كان نفسها تخطبلك أختها أيام الكلية ..!؟ كانت بتعزّك أوي.

نضال:

– أيام بقى، وعدّت.

عبد الله:

– دلوقتي.. آه يا ناري الدح الدح.

نضال:

– الواد فاهمني صح ههههههههه.

عبد الله:

– إوعى تزعل من إبراهيم طول عمر لسانه بيحدف طوب مش حوار إنه فاكر نفسه تدين.

نضال:

– أنت هتعرّفني عليه؟ ربنا يشفيه بييجي كل كام شهر.. بس، وربنا بحبه، وبحب أستفزه.

عبد الله:

– أنت جبت السفالة اللي في الكليب منين؟!

نضال:

– من الميكانيكي.

عبد الله:

– إيحاءات جنسية، وكلمات ملهاش معنى، ولا ليها علاقة بأي فن.

نضال:

– الناس عايزه كده.

عبد الله:

– عيب ده أنت بتقول الناس بتنجّح اللي يتفرض عليها، ويتسوّقله جامد، ويشوفوه على كل الشاشات.. تعرف الاحتلال الفرنسي لما أنشأ الإذاعة المصرية كان هدفهم توجيه الشعب لصالحهم عشان كده أحد أهم المفكرين الفرنسيين وقتها قال:

"سنبث لهم ما نريدهم أن يكونوا عليه، وليس ما هم عليه "

نضال:

- فُكنا من السيرة دي.. إنت عارفني مش مرتاح فحياتي فبلاش تكرّهني فنفسي زيادة.

عبد الله:

- يا سيدي حقّك عليّا.. بس افتكر ربنا.

نضال:

- ربنا..!

- تصدّق بقالي فترة كبيرة بدوّر عليه، مش لاقيه..مش حاسه حتى لما واظبت على الصلاة.

عبد الله:

- هتلاقي النور لما تفتح عيونك، وهتلاقي ربنا لما تفتح قلبك.

أوصله عبد الله حتى بيته فقد سرقهم كلام طويل.. صعد نضال، ألقى جسده على أريكته الموضوعة خارج غرفته على السطوح بين زهوره، واخترق بصره السماء يبحث عن الله، ويتأمل النجوم فتجلت له فتاة المقابر.. لينام مرتاحًا بقلبٍ باسم.

عاد عبد الله بيته، صعد شقته فتح الباب بهدوء دخل بخطوات بطيئة وأذان الفجر ينساب معه.. أوقفته نظراتها الحانية، أبهجه تسريحة شعرها الطفولية، وساقاها تطلان من شورت مليء برسومات كارتونية، والأذان يُرفع.. "حي على الصلاة".

فتح يديه فانطلقت له بطفولتها ترتمي في صدره فحضنه محراب صلاتها، وقلبه قبلتها التي توجه روحها لخالقها بسكينة الخشوع..

أكمل الأذان.."حي على الفلاح".

لف ذراعيه معانقها، ومُقبّلها بين عينيها لتحيطه بقدميها خلف ظهره..

تعالَى الأذان.. "الصلاة خير من النوم.

فدار بها متناسين الجاذبية معظمين الله تعالى بشعائر الحب، وصدق المشاعر..

فلماذا بعض الناس عن أحبابهم ساهون، وفي لوعة الحب مقصرون، ولمحراب المشاعر هاجرون !!

ظلاّ يدوران حتى وصلا آخر الصالة، وعلى الحائط صورة زفافهم، وهي ترتدي حجابها بوقار لا يدلُّ على ما هم فيه، وبرغم غضبها منه لم تستقبله يومًا بوجه عبوس.. فقط.. تحتويه بحنينها ثم تعاتبه.

***

4

ولج النهار في الليل.. فتباهت السماء بزُرقتها.. وقفت رحمة أمام المرآة تُنهي ملابسها لحت حقيبتها فأخرجت منها صندوقًا خشبيًّا صغيرًا بحجم ثلاث أصابع..فتحته نظرت داخله شيئًا فتبسمت حالمة.. دخلت أمها فشاع الإعجاب من عينها فأعادت رحمة الصندوق حقيبتها قبل أن تلمحه أمُّها .

أم رحمة:

– عروسة، ونازلة فرحها يا ناس.

رحمة:

– أعوذ بالله.. طب قولي حاجة حلوة على الصبح.

أم رحمة:

- والله ربنا هيعوّضك بواحد يتجنن بيكي، ويشحتفك عليه.

رحمة:

- وياخدني على الحصان أبو جناحات، ونطير لغاية بولاق الدكرور إنتِ النهاردة إجازة، ورايقة.

أم رحمة:

- لو تسمعي كلامي، وتقلعي حجابك لحد ما يجيلك عريس لُقطة.. هتفلحي، وتكسبي.

رحمة:

- كده كتير على الصبح.. سلام يا ست الكل.

دلفت رحمة إلى عملها الذي تُطلق عليه "أحب هواياتي"، دخلت الحضانة.. فكانت في أبهى ما يُهديه الصباح للعالمين ليحبوا بداية يومهم، ويتفاءلوا.. استقبلت الأطفال بصفاء أمومة تناغمت مع براءتهم فزادوا الإشراق إشراقًا..

استيقظ نضال بحرارة الشمس،وهو ما زال على أريكته بالسطوح.. خلع حذاءه، ودخل شقته.

وبعد انتهاء يوم رحمة بالحضانة.. اتجهت لعملها الأصلي في الصيدلية صلت الظهر، وارتدت البالطو الأبيض لتبدأ عملها.. لفت انتباهها أثناء حديثها مع زميلاتها لقاء تليفزيوني عن التحرش بالفتيات، تابعنَ في صمت ساخر أسئلة المذيع لضيفته مفجرة حملة "إمسك متحرش":

رحمة:

– مش دي نعناعة ولا نظري ضعف!!

سارة:

– (هزّت رأسها كالدرويش فتطاير شعرها).. الواد فاهمني صح.. لسعلي قلبي أح.

رحمة:

– الناس دي بتجيب البجاحة منين !!

سارة:

– تصدّقي الهدوم اللي لبستها في كليباتها..الواحدة تتكسف تلبسهم لجوزها.

***

5

وتمرُّ الأيام..

ونضال في نضاله ما بين تصوير وتحضير لأعمال جديدة، وعندما قرَّر زيارة قبر أمه، لم يكن أمامه تفكير لاختيار يوم غير الخميس، فكان عليه انتظار ثلاثة أيام.

لم يسأل نفسه.. هل سيذهب لزيارة أمه أم يتمنى صدق كلام الفتاة في زيارتها قبر أبيها كل خميس؟

لو حقًا يريد زيارة أمه فلماذا لا يذهب في الحال أو في الغد..؟ ما يبدو أنه الوقت الذي لا نجيب على أسئلة المنطق.. فقط ننفذ ما تمليه علينا قلوبنا، أخيرًا.. أتى يوم الخميس..

شيء ما يوقظنا للأشياء التي نحبها أو نتمنى حدوثها..نستيقظ بكامل نشاطنا حتى لو نمنا قليلًا..

ارتدى أفضل ما عنده.. لا يذكر كم استغرق الطريق، ولو سُئل عن أي تفاصيل ما بين استيقاظه وحتى دخوله المقابر ودورانه حول قبر أمه متمنيًا أن تأتي لن يتذكر أي شيء.. فهو لم يشعر بوجوده إلا عندما أتت..

إشراقتها جعلته يرى معالم المكان حوله ويدرك وجوده في لمعان الغروب والشمس خلفها. طلتها أبهجته بفستانها بلون السماء واسع كفستان ملكة يُجسِّم خصرها وتلمع فيه حلقة ذهبية تتناسق مع حجاب نحاسي.. هي ليست بحاجة لثياب فاتنة تثبت أنوثتها فهي التي تعطي الثياب صفة الأنوثة فور ارتدائه.

وهو جالس على ركبتيه يرمقها من بين قباب المقابر، اقتربت لقبر أبيها كأنها تراه حيًّا احتضنته ببهجة بسْمتها، شبَّكت أصابعها بدلال الطفولة، متأملة باب المقبرة، ثم رفعت يديها ناصعتي البياض بطلاء أحمر تدعو، ازدادت بهجة نضال، يبدو أنها سعيدة عكس المرة السابقة، انتفض متجهًا لها، كأنه يعرفها، وتعرفه.. مَدَّ يده بالسلام.. تراجعت خطوتين ترمقه شزرًا فلم يمهلها وأكمل اندفاعه قائلًا:

– أخبارك إي؟

الفتاة:

- حضرتك مين؟

نضال:

- واضح إنك مبسوطة أوي النهاردة.

الفتاة:

- بقول حضرتك مين؟!

نضال:

- الله..!! ازاي مش فكراني؟! أنا نضال إللي كنت هنا من أسبوعين واديتك منديل.

الفتاة:

- إفتكرت إفتكرت.. عمومًا مُتأسّفة مش بسلم على رجالة، وده يثبت إننا مانعرفش بعض.

نضال:

- لا، ولا يهمك.. معلش لو دايقتك بس كنت هنا بالصدفة شوفتك مبسوطة فِرِحْتِلِك وقلت أسلم.

" انتبه أن يده ما زالت ممدودة.. فسحبها".

الفتاة:

- متشكرة لحضرتك .

نضال:

– عمومًا.. أنا نضال عبد الحق.. مخرج إعلانات، وكليبات.

الفتاة:

– تشرّفنا.

لم يدرك ما فعل إلا في طريق عودته، تذكّر كم كان مندفعًا يتلعثم بين حروفه.. كيف أعطى الحقَّ لغريبةٍ أن تحرجه وتهدم قلاع كبريائه!، كيف أعطاها فرصة هرس اسمه بعدم مصافحته!، كم كان متطفلًا لزجًا!

مسكينات الفتيات حين يرون انجذاب الشباب لهن، مساكين أمام شحنات السذاجة الصادرة من وجه معجب لم يقوَ السيطرة على ملامحه، وانفعالاته الطفولية أو الحيوانية.

وحين عادت بيتها جلست تحكي لأمها ما حدث، وأمها تنصت في إعجاب، وفخر.. لكنها اندفعت:

أم رحمة:

– افتكرتك هتقولي إديتيه رقم أخوكي يا موكوسة.. يعني الواد طلع مخرج وتلاقيه محوش ملايين، وأكيد متعمد يجيلك الترب عشان المرة اللي فاتت عرفتيه إنك بتيجي كل خميس.

رحمة:

– إيه رأيك؟ أمشي أوزع رقمي في الشارع وأقول مطلوب عريس غني!!

أم رحمة:

– طب وسّعي أكمل المسلسل طالما هتتريقي يا موكوسه.

رحمة:

– يا ست الكل مهو مش كل ما أحكيلك عن حد تقولي يا رب يتجوزك.

وفي الجيم كان نضال يُخرج غضبه في التمرين، وعبد الله ملاحظ ما عليه.

عبد الله:

– النهاردة طاقتك ما شاء الله .. بس حاسسها طاقة غِل.

نضال:

– يا ريته غِل عادي.. تخيّل أمد إيدي أسلم على واحده تروح تكسفني، وتقول مش بسلم.

عبد الله:

– ودي عرفتها منين يا صايع ..!! أكيد مش من كليباتك.

***

أغلقت رحمة غرفتها من الداخل بالمفتاح، ربطت خصرها بقماشة لترقص خلف التلفاز أفضل من فناناته، ويتطاير شعرها مغطيًا ظهرها. طرقات قوية على الباب، ورحمة لا تسمعها لعلو صوت الأغاني واندماجها في الرقص.. ضرب أخوها الباب بقدمه عدة مرات فانتبهت، أغلقت التلفاز وارتدت إسدال الصلاة.. فتحت، وأنفاسها تصارعها.

محمد:

– الأخت فيفي عبده فاضية تتعشى معانا؟

رحمة:

– عرفت منين إني كنت برقص؟

محمد:

– مشغله أغاني تسمّع آخر الشارع.. هتكوني بتصلي يعني! ولاّ صدّقتي نفسك بالإسدال!

رحمة:

– وِسّع ياعم.. فكّرتني إني جعانة.. ماما نامت ولا إيه؟

محمد:

– من بدري.

رحمة:

- إيه ده .. إيه ده ..؟ إيه الخاتم الجديد ده؟

محمد:

- منة جابتهولي هدية النهاردة.

رحمة:

- ربنا يخليكم لبعض.. طب ها.. مش باين فيّا أي تغيير؟

تأملها محمد قليلًا، وقال:

- مش واخد بالي.

رحمة:

- إخص عليك.. غيّرت قصة، ولون شعري.

محمد:

- تصدقي صح.. حلو أوي اللون ده.

رحمة:

- مالكش دعوة.. منا لو منة كنت خدت بالك من غير ما أسألك.

جلسا يأكلان، وطفولتها تصارعها، لكم تمنت لو لاحظ التغييرات الكبيرة في شكلها. تذكرت ماضيًا مؤلمًا.

لكم تمنت شخصًا يهتم بتفاصيلها مثلما تلاحظ من حولها.. غامرها ماضيها فقامت للنوم في صمت.

جلست على فراشها أخرجت صندوقها الخشبي الصغير فتحته فتغيرت ملامحها قليلًا لشيء من السعادة الحالمة.. وضعته تحت وسادتها ونامت.

***

6

عندما تتحوَّل طاقة الانجذاب إلى انتقام عاطفي.. نصبح أكثر جنونًا، وتبدو عشوائية تصرفاتنا؛ لذا فرغ نفسه من كل شيء وكرس وقته لذلك الانتقام العاطفي محاولًا أن يرجع لنفسه جزءًا مما فقده، عندما صدته تلك الفتاة الذي يعترف بينه وبين نفسه أنه لا يحق له أن يلومها حتى في خياله..

ورغم أن صدها أفجعه لكنه أحبه، وانجذب لها دون تفكير لتقديرها قيمة أنوثتها فليست رخيصة سهلة المنال كفتياته.

مضى شهر، ونضال في ملحمته مع الفتاة، وهي لا تدرك وقوفها طرفًا لصراع أسطوري.. انجذابه لها يزيد يوميًا فهو يحيط كل تفاصيلها؛ إشراقة وجهها وحمرة خديها لمجرد ملامسة الشمس تجعل قلبه يخفق.

أخيرًا أتى يوم الخميس، وأرواح الموتى تنتظر مع نضال قدوم الفتاة.

الجميع يترقّب دخولها، يتمنون أن تسرع متعاطفين مع مشاعر المجنون وأكثر المتعاطفين روحان تصدران الجميع.. أبوها، وأمه، وفي الميعاد المعتاد دخلت ملكة الأنوثة تمشي على استحياء لتزين جنة الأرواح البرزخية وبسمتها تنطفئ كلما اقتربت لقبر أبيها وشرودها يغامر تأملها الورد المنثور حلقة حول المقبرة.. وقفت، مدّت يدها تجاه الباب لتمسك علبة هدايا بيضاء.. فتحتها وجدت كارتًا مكتوبًا عليه:

"علبة بلون قلبك بها كارت ميموري يحمل شيئًا من وصفك"

ملصوق أسفل الكلام كارت ذاكرة أدخلته هاتفها لم تجد به سوى فيديو.. أبهرها .. أسعدها..

ولأول مرة تستشعر أهميتها في قلب لا تعرفه وبدون مقابل أمتعها وجدت فيه الاهتمام الذي لم تتخيله في أحلامها.. فيديو مدته دقيقتان، به لقطات متفرقة لتفاصيل حياتها.. تدلف من بيتها حتى المقابر.. مرة شاكية، ومرة حائلة، ومرة سعيدة، وأخرى شاردة.. لقطة دخولها المسجد، وقوفها أمام الحضانة تستقبل الأطفال بأحضان الأمومة، وقوفها مع صديقتها تشاهد الفساتين قبل شرائها.. وجودها في القوافل الطبية الخيرية لعلاج الفقراء بالمجان.. لقطة تعطي طفلًا متسوِّلًا نقودًا وتنحني له بالحلوى.. لقطة قُبيل الغروب تضع وردًا لأبيها.. خروجها من عملها.. تأملها الخضراوات قبل شرائها.. تفاصيل تغلفها موسيقى بإيقاعية الحياة يكتب في نهاية الفيديو "إلى الفتاة التي لم أعرف اسمها.. موقن أنكِ المعنى الحقيقي للوفاء.

وَقَفَ نضال من خلف مقبرة بيده كاميرته تقتنص رد فعلها.. اقترب بقلب يطير يشعر أن له الحق في أن تكلمه كثيرًا وهي ما زالت تائهة في الفيديو.. خفض رأسه أسفل مستوى هاتفها لتراه فرفعت عينيها له دون ارتباك كأنها تنتظره ..

أعطته ثمن تعبه ابتسامةً راضيةً عن كل ما فعل.

ويا لعظمة الرجولة حين تشعرنا الأنثى أنها تُقدِّر ما بذلناه لأجلها وترضى عنا!

ابتلع ريقة منتشيًا ببسمتها، وعيناها ترفعانه ببطء ليقف فى مستوى نظرها.. خاشعًا في تجليات الإله في رقة عظمة خلقة.. مد يده عارضًا لها شاشة الكاميرا قائلًا:

- أحلى لقطة إللي صورتها حالًا وإنتِ بتتفرّجي على نفسك.

إشباع احتياجها العاطفي بالاهتمام أنساها طبيعة شخصيتها، وتاهت في حنايا صوته مُنتعشةً بهديته.

الفتاة:

- مش عارفه أشكرك، ولاّ أتخانق معاك.. بجد مش مستوعبة إنت ازاي كده؟!

ويا لسحر حياء الأنثى حين ترتبك لفرط سعادتها فينمو على ارتباكها حكمة الرجل، وينضج عقله على فوضى عواطفها! حوَّلها من سائلة لمجيبةٍ، ومن قاضية لمتهمة، ومن مهاجمة لمدافعةٍ، بهدوء قاطعها:

نضال:

- تنكري إنك فرحانة جدًّا؟

(هزَّ خجلها رأسها نفيًا).

نضال:

- تنكري إنها أغرب، وأحلى مفاجأة في حياتك؟

(تزايدت حُمرة وجهها ورفعت حاجبيها تهز رأسها بالنفي)

نضال:

- تنكري دي من أكتر اللحظات اللي حسّيتي اهتمام حد بيكي لدرجة الجنون؟

نطق كلمة لامست مشاعرها قبل مسامعها، وسكنت قلبها قبل أذنيها.. فتهربت من كلمة "اهتمام"، وقاومت الاستسلام الداخلي متصنعة الجدية.

الفتاة:

- لسه مش عارفة أشكرك، ولا أتخانق معاك.

نضال:

- مش فارق تعملي إيه.. المهم ما تمشيش.

الفتاة:

- عايز مني إيه يا نضال؟

لم يسيطر على عضلات وجهه لفرط فرحه تَذكُّرِها اسمه بعد هذه الفترة .

سكت.. لأن الصمت يربك أكثر من الكلام، احتفظ بصمته يراقبها، وما زالت عيناها لا تجرؤان أن تواجها عينيه..

أوشك نبض قلبها أن يدب الحياة في جموع الأرواح المتابعة ويُعيدها للحياة الدنيا.

نضال:

- كنت زعلان إنك ماعرفتيش إسمي لما قولتهولك المرة اللي فاتت فحبيت أحفره جوّاكي بذكرى مش هتتكرر فحياتك وعشان كدة ماكتبتش اسمي في آخر الكليب.

الفتاة:

- أديني عرفت اسمك.. شكرًا جدًّا على الهدية.

نضال:

- مش هعرف اسمك طيب؟

الفتاة:

- رحمة.

نضال:

- لايق أوي عليكي.. إنتِ فعلًا رحمة.. كل تفاصيلك، وملامحك موزّة تجنن، وكمـــ...

دهس منطقة الألغام تخطي منطقة الأمان.. دون قصد خانة لسانه في انتقاء ما يناسب هالة حيائها.

عقدت حاجبيها.. تحوّلت.. غضبت.. همت بالرحيل، وتلك هي الأنثى العربية بشرقيتها، وتدينها مهما يكن دينها، ومهما كبر سنُّها تظل ملامحها بكرًا أمام غزل الغرباء.. تغضب.. ترتبك..

وربما تسب مغازلها لفرط حيائها لمعرفتها قيمة الأنثى وعظمتها في مجتمعها ودينها، فهي ليست مرتعًا للغرباء ولا غزالة الشعراء.. لذا همّت بالرحيل، وقد حولت فطرتها صوتها من الرقة للشراسة.

رحمة:

- العيب مش عليك واحد زيك ما يشرّفنيش أرد السلام عليه، ومع ذلك شكرتك ووقفت أكلمك.. ففتكّرتني واحده من بنات كليباتك..إنت لو فعلًا فرحتني فده لإني أول مرة تحصلّي لكن حضرتك

كل يوم بتصور في بنات، وياعالم بقى.. ما هي شغلتك، وبحذّرك فيديوهاتي تمسحها من عندك عشان لو نشرتها في أي مكان هرفع عليك قضية.

نضال:

– عمرك ما كنتي ولا هتكوني من بنات كليباتي.. إنتِ لو زيهم مكنتش عملتلك المفاجأة أصلًا. أقسم بالله الحاجة اللي شدتّني ليكي بعد وفاءك لوالدك تديّنك، واحترامك.. حتى نظراتك في الشارع، وإنتِ ماشية..كل تفاصيلك خلّتني أحس بطهارة الفطرة، وكلامي دلوقتي مش لإني جاي أعترفلك بحب.. لأني مش الساذج اللي يؤمن بالحب من نظرة.. لكن تمنيت لو كنت أعرفك.. تمنيت لوكنتي أختي أو حد قريبي ليا الحق أتكلم معاه وأحكيله.. فقرّرت أعمل مغامرة عمري ماتخيلتها، وعارف إنك لما تتفرّجي على الفيديو مش هتقعي، وتشوفيني فارس الأحلام.. لإنك مش رخيصة تقعي من أول طُعْم.

همّت بالرحيل.. لمحت في الطرف الآخر للمقابر جنازة.. لم يلمحاها طيلة الوقت أو يشعرا بها.

رحمة:

– سبحان الله ولا حسينا بالجنازة. أهو الحياة بتاخدنا من كل حاجة حوالينا زي كلامنا دلوقتي، وفجأة نلاقي نفسنا مكان اللي بيدفنوه.. ياريتك تفهم آية ربنا ليك النهاردة.. لإن كل شيء آية من ربنا.. كل شيء لهدف سعادتنا.. فياريت نفهم بدل ماتموت وإنت ملهي بشغلك في صناعة الانحلال ..

رحلت..فتبدّل كل شيء..كيف لمشاعرنا أن تغير منظور الأشياء؟..

الآن أحس بوحشة المقابر.. بقسوة التراب.. بكآبة المنظر.. برعب الموت.. بفحيح الهدوء مع أنه من دقائق كانت مشاعره تلوّن نفس المكان، ويستأنس بهدوئه.. فقط..وحدها مشاعرنا تلون ما حولنا جمالًا.. أو تصبغه قبحًا ..

لم تتبعها عيناه في رحيلها الذي لم تلتفت فيه إليه، ولم تفكر حتى في الالتفات.. قادته قدماه لزحام الجنازة بعينين دامعتين وعقل متهتِّك لا يعرف ما يبكيه.. أهي قسوة الموت.. أم لدغة الفراشة..! أم لأنه للمرة الأولى يتبرأ من نفسه ويتمنى لو لم يكن على ما هو عليه!!..

عرّاه حياؤها، أحس نجاسته بضياء طهارتها.. أرهقته عفتها.. تمنّى لو كان شخصًا يسرها معرفته حتى لو لم تعطه فرصة معرفتها أو لم يجمعهما القدر.

عطس لكثرة التراب المتصاعد من ردم الميت..وضع يده على وجهه فأحس خشونة اختلاط الغبار بدموعه.. التفت فتقاطع بصره مع رجل في الخمسين.. احتضنه، وربت على كتفه.. انفجر نضال باكيًا كل شيء.. تعالى نحيبه فازداد احتضان الرجل ظانًّا انه أحد أقارب المتوفّى الذين لا يعرفهم.. أو ربما..هو حضن عابر..أرسله الله جزءًا من رحماته.

7

قيودها الشرقية العربية دينيًا واجتماعيًا تصادمت مع أحلامها العاطفية وطيف أنوثتها؛ لذا.. كبرت أحلام اليقظة على ضفاف أمانيها الممنوعة في مجتمعها والمحرمة في يقين فطرتها، تخيلت متمنية.. لو أنها حين وجدت الهدية.. التفتت لنضال بشعر يتطاير وفستان تنورته قصيرة يحتضنها حتى الاندماج.. يحيط وجهها بكفيه ويُداعب أنفها بأنفه.. يتنفسان أنفاس بعضهما البعض.

نعم.. تديُّنها وحياؤها.. لن يوقفا هيام أنوثتها.. حلمها بحب عفوي دون قيود زمانية أو مكانية بهدف وحيد.. المتعة دون قيود.. لكن.. دخول السعادة بتأشيرة العبادة.. بيقين التقرُّب إلى الله في متعته، وحتى لو لم يكن يقينها فيه ما فيه من تقرُّبٍ لله.. فمجتمعها ليس فيلمًا غربيًا تُلتهم فيه الشفاه لمجرد انجذاب وربما إعجاب، وحتى لو سيطرت الدراما

على عقولنا اللاواعية بمشاهد مستوردة لشيء لا يستورد وينعدم بخروجه من مجتمعه ألا وهو "الثقافة"، فنبعها الدين واللغة وأنفاسها رقعة محددة من الأرض.. فتستشري ثقافتنا في دمائنا وتحكمنا حتى لو استورد صناع الإعلام والسينما ألوانًا شتى لثقافات أخرى تحت أي دعوى ومسميات جذابة.

وفي ساحة المقهى الشعبي.. نضال بين أصحابه يتضاحكون، وهو شارد يبادل رحمة نفس الشعور لكنه لم يتخيلها بغير ما هي عليه، كل ما زاد بخياله لو أنها رأته بنفس العين التي رآها بها.. لو أنها قبلته على حاله ولم تُشوِّهه أمام نفسه، ومدَّت يدها تصافحه.. فقط تصافحه.. لأنه رآها وردة فريدة بألوانها ورائحتها المنعشة، بسكينة متعة الفطرة، ولو تخيل قطافها لصارت كالعطور مجرد سوائل لا تدلُّ لأي وردة كانت، ولا يظهر اختلافها وتفردها عن أصل باقي أزهار العطور ..

وصدى صوتها لا يتوقف بعقله "كل شيء آية من ربنا.. كل شيء لهدف سعادتنا.. فياريت نفهم.

وبين خيالها وخياله.. يبقى الواقع هو الشيء المؤكد حدوثه..

انتبه نضال على صوت مينا يطبل على الترابيزة ويغني:

" أصابك عشق أم رميت بأسهم؟ فما هذه إلا سجية مغرم"

انتبه ليجد نفسه محطَّ أنظارهم وضحكاتهم تتعالى.

نضال:

- واضح الليلة عليا.. صح؟

عبد الله:

- أمال لو سلمت عليك كان جرالك إيه!!

حسين:

- اللي زي ده بيبوس على طول مش فاضي يسلّم.

نضال:

- يا جدعان مافيش حاجة.. سرحان في شغل بس.

مينا:

- والعدرة كده أكدتلنا إن في حاجة.. لإن لو مافيش كان زمانك قالبها مسخرة مش جد.

***

بحثت رحمة عن حسابه في موقع fecebook فضولًا في معرفة معلومات عن الشخص الذي تلصَّص على حياتها.. فتثلجت أناملها لمجرد قراءة آخر منشور له..كيف؟! لقد وصف ما دار بعقلها فور رجعوها البيت! لو كانت أخبرته خواطرها في رسالة ما كانت ستصفها بتلك الدقة! وبنفس الفكاهة ..!!

وجدته قد كتبَ ..

"تلك الفتاة الشرقية العربية لن تعانقك وسط الطريق لمجرد إعجابها بك ومن الأفضل في بداية تعارفاكم ألّا تمد يدك بالسلام كيلا تتركها معلقة بالهواء، ولو اجتازت شفتاك المسافة الفاصلة بينكما ستسمع طرقعة كفِّها على خدك! ولن ترقص معك تحت المطر وتتمايل لتتطايُر خصلات شعرها المبلول! لأنه إن حدث وأمطرت الدنيا سيمر توكتوك يفرغ المياه المتراكمة في حفرة فتصبغكما بالوحل، وستعودان البيت سريعًا للعلاج من نزلة برد. فالحب في بلادي وحتى في بلاد صناع الدراما ليس فيلمًا سينمائيًّا".

تأملت جميع صوره، أسعدها بهجة ابتسامته فيها ..تعجَّبت لمنشوراته الدينية وبعض فلسفاته، ولكم عاتبت نفسها كثيرًا على قسوتها معه! ولكم تمنت لو أنه لم يهم بمغازلتها واحتفظ باحترام لسانه! لكم تمنت أن يطول كلامهما.. أن ترى اهتمامه بتفاصيلها الدقيقة في عينيه.. أن تتلمس انبهاره بها في طيات كلماته!

أعادت تشغيل الفيديو مئات المرات حتى سيطر عليها، وبدا مفعوله وهي تتأمل كل لقطة، تتخيَّل كيف كان يتابعها المجنون متلصصًا ولم يمل.. مع أن زمن الفيديو دقيقتان فَقَدْ برهن على المشقة، فلقطة تثبت أنه بات الليل أمام بيتها لتصويرها في البلكونة وقت السهر ثم انتظارها حتى تخرج في السابعة صباحًا، وتعدُّد اللقطات متعددة الملابس، والأيام.. أي تعدد إرهاق المجنون في مرات كثيرة لمراقبتها، وكلما

أعادت مشاهدة الفيديو وقعت في شِباكه، وسيطر عليها رنين صوته بكلماته:

"تنكَري دي أغرب وأجمل هدية في حياتك.. تنكري دي أكتر اللحظات اللي حسيتي اهتمام بيكي .

أثّر فيها صوته في غرفتها، وهي تسترجع ما دار بينهما.. أكثر مما أثر فيها وقت لقائهما. وفي وقت هدوء الصيدلية من الزبائن كانت رحمة تُطلِعُ سارة على الفيديو وتقصُّ عليها ما حدث.

سارة:

– أنا لو مكانك كنت قولتله كلمة واحدة.. زوّجتك نفسي يا سيدي، ومولاي، والنبي تقبل.

رحمة:

– بجد حالي متشقلب من وقتها.. فرحانة على متوترة على مرعوبة.

سارة:

– حسّاكي يارورو.. مهو الواد مخرج، وفاهم الرومانسية بزيادة.

رحمة:

– تفتكري حبّني من كتر ما راقِبني؟

سارة:

– أبسط شيء اتعلق بيكي، وصورتك مسيطرة عليه أكتر ما الفيديو سيطر عليكي.. يا ترى عرّفتي أمك؟

رحمة:

– وماله.. عشان تدوّر على نضال تلبّسه قضية تحرش بيّا عشان يتجوّزني... ههههههههه.

***

أصبحتْ في المدينة هائمة تترقّب.. تائهة تتلفّت..تحس جميع البشر يراقبونها،جميع الأشياء كاميرات ترصدها خلف كل ساتر يخيل لها نضال يُصورِّها، توترها جمَّلها على جمالها، كأنها كوكب دُري يكتحل حياءً.. ولكم تمنت أن تلمحه في طريقها دون أن يلحظ لتتفرس ملامحه وهو يراقبها! تمنت لو اخترقت عقله في لحظة تمريرة شعاع بصره من كاميرته ليصورها! تمنت، وتمنت، وتلفتت..حتى انسحب بساط الوقت من تحت قدميها ومرت أيام وأيام.. لا تجده حولها مثلما تخيّلت.

واستوحش نضال فتاته تضيء كاميراته في عمله، أحس شيئًا ينقصه، تصويره المشاهد تنقصها رحمة، قد تعوَّدها فترة مراقبتها حتى صارت جزءًا من مجال بصره في كل الأوقات.. حتى في نومه نفذت من عينه لقلبه فسكنت روحه.. لكم تمَنّى لو لم يفلت لسانه بما أغضبها! تمنى

وتمنى حتى بدأت تنقشع غشاوة تكبل قلبه فنفذت منها روحه تتحسس قوى الطبيعة وتقرع أبواب القدر لتبصر أسباب المصادفات التي جمعتهما وفلسفتها.. تلاطم نبض مشاعره وتصادمت آثاره فاستيقظت بصيرته من تخديرها.. هام وهام.. فاستقرت بصيرته في أيامه ليتذكّر السبب الأول للقائه برحمة.

القرآن بصوت المنشاوي في أحد الميكروباصات كان بداية القصة..

***

8

في أحد المراكز التعليمية وقف شامخًا كأبهى نجوم السينما بجسده الرياضي الممشوق وملابسه الشبابية ذات الألوان الراقية، مُعطيًا الطُّلابَ ظهره، يكتب على السبورة فتتباين عضلات ذراعه في كتابة كل كلمة،ويقرأ بصوت مسموع: "برز الثعلب يومًا في ثياب الواعظين.. فمشى في الأرض يهدي ويسب الماكرين ويقول الحمد لله إله العالمين.. يا عباد الله توبوا فهو كهف التائبين".

انطلق رنين موبايل أحد الطلبة فتوقَّف عن الكتابة واستدار واضعًا قلمه بين شعر لحيته متبسمًا قائلًا:

– مش عايزين نتعطل كتير.. اللي موبايله رن يجي يحط الغرامة.

فقام أحد الطلبة واضعًا خمسة جنيهات على مكتب عبد الله ثم عاد مكانه.

عبد الله:

– كده ناقص حد موبايله يرن أو يجي الحصة الجية متأخر وأشتريلكم دستة أقلام بالغرامة. واستدار يكمل كتابه بين ضحكات الطلاب:

"وازهدوا في الطير إن العيش عيش الزاهدين.. واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا.

انطلق رنين موبايل فاستدار عبد الله ضاحكًا بصوتٍ:

– كده هنشتري الأقلام النهاردة.

وقف لحظات فلم يخرج أحد بالغرامة.. ثم وقفت طالبة محاولة تمالُك ضحكاتها:

– أستاذ.. الصوت طالع من شنطة حضرتك.

عبد الله:

– مستحيل.. أنا موبايلي بخليه صامت قبل كل حصة.

الطالبة:

– طب شوف موبايلك.

اقترب لحقيبته.. فتحها أخرج هاتفه تفحصه.. ابتسم وأخرج خمسة جنيهات وضعها على المكتب.

عبد الله:

- لازم أدفع يعني ولا المسامح كريم..؟ هههههههههه

تعالت ضحكات الطلاب وأستاذهم يدفع الغرامة .

***

9

لأول مرة يأتي يوم الخميس، ولا تزور رحمة أباها خشية أن ترى نضالًا.. رغم ما في قلبها له، أجّلت زيارتها ليوم السبت.. دخلت ساحة المقابر بين أصوات الزغاريد لحفل زفاف أحد ساكني المقابر تنطلق الأغاني من سماعات كبيرة لتتراقص الفتيات على إيقاعها وتوزع حلوى متواضعة، وينطلق أطفال فرحين بما التقطوه من ورد وحلوى.. اقتربت لقبر أبيها، رمقت قبر أم نضال، ولم تلحظ وجود نضال متكئًا في الجهة الأخرى لقبر أمه واجمًا ينظر للسماء.. وقفت تبوح لأبيها بما حدث منذ آخر لقاء.. تذكّر أدق تفاصيلها كما عوّدها أبوها في حياته وعوّدت نفسها بعد موته.. ذكرت له نضال، وما تشعره كلما شاهدت هديته.. اشتكت أخاها، وعدم ملاحظته قَصَّة شعرها، ذكرت فرحتها بإقامة أحد الآباء احتفالًا كبيرًا لابنه بالحضانة لتفوقه الرياضي قد غطى حمام

السباحة بالبلالين مبهجة الألوان، وأقام فقرات ترفيهية للأطفال من ساحر وأراجوز ودباديب كبيرة تتراقص مع الأطفال ومسابقات.. كل هذا على إيقاع أغانٍ شعبية منطلقة من حفل زفاف المقابرز.

أهي نضال ما جاء لأجله وقف ينفض ملابسه..هَمَّ بالرحيل فرآها.. لم يسيطر على انفعاله وأطلق صوته بتعجُّبٍ مفرح:

– رحمة"! إيه جابك النهاردة!

استشرى صوته في جميع شعيراتها الدموية.. عزلها عما هي فيه.. بدّل صوت الأغاني طنينًا.. أخفى ذكرياتها من عقلها، استدارت بكامل جسدها لمصدر الصوت بلهفة تثقل دقات قلبها وتقويها حتى شعرت بها في حلقها وعظام فَكّها.

رحمة:

– نضال!

نضال:

– هو بشحمه ولحمه.

رحمة:

– عرفت منين إني هاجي النهاردة؟

نظر لها نظرة تزفُّ معاني ثم وضع يده على مقبرة، وابتسامته تخالط أنفاسه:

نضال:

– جاي أثبت لنفسي إني جاي لأمي، وإن أمي في كل أيام الأسبوع.

ابتلعت ريقها بصعوبة، حاولت السيطرة على رعشة يدها، وجاهدت دقات قلبها في إخراج صوتها بصوتٍ مسموع.

رحمة:

– أنا كمان حبّيت أزور بابا في يوم إنت ما تتوقعهوش.

نضال:

– سبحان من جمعنا بغير ميعاد.. أعرف ناس الله يمسيهم بالخير قالولي كل شيء آية من ربنا.. كل شيء لهدف سعادتنا فياريت نفهم.

أربكها أكثر عمق ما في عينه من معانٍ تفوق الألفاظ، فتحت شفتيها لتنطق فلم تستطع إفلات عينيها من عينيه.. أحكم قيده عليها، ودخل قلبها على حين غفلة منها فوجد فيها احساسين متضادين يتصارعان ويريد كل منهما السيطرة علي قلبها، احساس يمنيها رقة احلام الفتيات ويصور الدنيا فراشات تتراقص بين الزهور، والاحساس الآخر يواعدها آلام الفراق ويصور الدنيا حية تسعي في ارض بور، فاستنجد الإحساس الاول بنضال فنصره بصدق نظرته لرحمة،ليثبت لها أن قلبها خُلق ليحب لا لتتركه في ضلاله القديم.

نضال:

– يمكن تكون فرصة أعتذرلك عن أي حاجه ضايقتك.. أو يمكن عشان أقولك عيب تبقوا حضانة إنترناشيونال بتاخدوا على الطفل 4000 جنيه شهريًا وفي الآخر جايبين مصور أفراح يصور حفلاتكم.

رحمة:

– انت جيت الحفلة! صح؟! كنت حاسة والله إنك جيت.

نضال:

– أنا اللي كنت لابس دبدوب ميكي ماوس.

رحمة:

– أنت جننت الأطفال أكتر من أي دبدوب.

نضال:

– مكانش ينفع أدي فرصة لأي دبدوب يشد الأطفال أكتر مني، وتروحي تصوريهم وتسيبيني.

رحمة:

– لو سمحت بلاش تكمل كلام يعصبني.

أدرك أنها تريد أن تستبقيه أطول مدة.. فعزم أن يعطّشها إليه، ومد يده بكارته الخاص قائلًا:

- عمومًا دي أرقامي عشان لو حبيتوا تصوروا حفلات، ودِه رقم الواتس والفيس.

وبكل طفولة اندفعت دون وعي قائلة:

- عارفة أكونتك، ودلوقتي فهمت ليه من يومين كتبت بوست: "شكرًا ميكي ".

أفاقت فور إنهاء كلماتها وهو يبتسم قائلًا:

- "النهاردة هكتب (كل شيء آية من ربنا.. كل شيء لهدف سعادتنا.. فياريت نفهم).

لحظات صمت بين شرودها، وابتسامته، عاتبت نفسها بقسوة على ما أباحت به وهي تهرب بعينيها منه، طال الصمت فقال:

- هفضل مادد الكارت كتير؟!.. متخافيش هاخد نفس أجر مصوراتي الأفراح.

ابتسمت، بدأت ترفع يدها، وتستفيق مما هي فيه،فتحرك لها خطوتين، ومدَّ يده بالكارت أكثر.. اقتربت كفُّها الرقيقة.. ابتسم.. فتحت أصابعها لتمسك به.. ابتسم أكثر.. همّت بضم أصابعها على الكارت فسحبت يدها فجأة بسبب سقوط باقة ورد بين كفيهما.

التفتا ليجدا طفلة من الفرح تلبس فستان عروس متواضعة، وشعرها غجري يبدو عليه آثار اللعب تكشف ابتسامتها فقدها أسنانها اللبنية، وبمخارج ألفاظ مفعمة بصفير الطفولة قالت:

– أنا بحدف الورد على الناس زي ما العروسة عملت.. مش أنا فستاني حلو زي العروسة؟

مرَّر نضال عينه بين الطفلة ورحمة، ثم جلس على ركبتيه يلتقط الورد والكارت ممسكًا خصر الطفلة:

– الله فستانك حلو أوي أوي.. إنتِ أحلى عروسة في الدني .

قفزت الطفلة ومدّت يدها:

– شوفت المونيكير يا عمو ؟

أمسك يدها قبلها ببطء قشعر كفَّ رحمة.. حتى شعرت بملمس شفتيه على كفّها فقال نضال:

– لونه جميل أوي.

دارت الطفلة بقفزات مفرجة عن يديها لتتطاير تنورة فستانها، وبصوت عالٍ:

– هيييه.. أنا أحلى عروسة في الدنيا.

وكأنها تجسيد لإحساس رحمة..

تابعاها في فرحة قدسية طاهرة، أمسك نضال يدها أعطاها الكارت والورد.

نضال:

- إديهم لأبلة رحمة، وقوليلها.. كل شيء آية من ربنا كل شيء لهدف.. ها وريني هتقوليلها إيه؟

الطفلة:

- كل شيء آية من ربنا.. كل شيء بشنب.

انفجرت ضحكة رحمة عنوانًا لمملكة الأنوثة..ليرفع لها بصره فتخفي فمها بكفِّها.. فأكّد على مخارج حروفه.

نضال:

- كل شيء لهدف، وقوليلها ياريت تبعتلي صور ميكي.. يلا سلام.

نظر لرحمة، وأشار بيده مغادرًا، وقد لوَّنت الشمس الدنيا ذهبًا دون حرارة تمهيدًا للغروب..

لم يعد بينهما إعجاب أو اهتمام فحسب.. لقد امتلك كلٌّ منهما قلب الآخر، وأسعد الحاضرين هو يوم السبت.

أثناء عودته ظل متأملًا هاتفه يتمنى لو يستطيع تصفح الفيس بوك، وكتابة منشوره لتراه مع أنه ما أحب يومًا الاشتراك في باقات الإنترنت

لهاتفه كيلا يصبح أسيرًا لبرامج التواصل الاجتماعي ومواقعه، فهاتفه للاتصال فقط، وعلاقاته واقعية لا يحب تحويلها لمحادثات وصور، لكنه تمنى عكس ما هو عليه لأجلها.

أخيرًا.. وصل البيت وكتب منشوره..

(كل شيء آية من ربنا.. كل شيء لهدف سعادتنا فياريت نفهم)

لم يمضِ ثوانٍ على نشر كلماته ليجد أول إعجاب من حساب يحمل اسم رحمة راضي.. تصفّحه فوجدها هي.. ضغط على علامة الرسائل لحسابها لا يدري ماذا سيكتب لها.. فوجدها قد أرسلت له مما يقرب من الساعة صورة في الحفلة.. أرسل لها:

"متشكر جدًّا جدًّا جدًّا جدًّا جدًّا"

فأرسلت: ☺

أكمل تصفُّحه لمنشوراتها وصورها في قوافل المتطوعين للجمعيات الخيرية.. أما هي فلم تكن بحاجة لتصفُّح حسابه، فقد تصفحت كل ما فيه من يوم إنشائه.. منذ أهداها الفيديو.

أرسلت:

"يا حضرة الميكي ماوس حاول تستغل قدرتك في جذب الأطفال بإنك تزور دور الأيتام تلاعبهم"..

فهم ما ترنو إليه كلماتها فأرسل:

"نفسي.. بس مين يدلني؟ أصل وقتي كله لشغلي، ومعرفش جمعيات خيرية".

ردّت:

"اللي عايز حاجة بيعملها، واللي يسأل ما يتوهش"

تمعّن في رسالتها.. فرد ظهره على السرير ضاحكًا.. مشط جسده.. ثم قام يُغيّر ملابسه، ويستحم تاركًا هاتفه.

وكانت في نفس اللحظة تبحث في أنشطة الجمعية الخيرية عن ميعاد أول قافلة متطوعين لدار أيتام، نشرت على صفحتها الميعاد، وكتبت عليه:

"محدّش يفوّت الفرصة.. الأطفال دول محتاجين لنا أوي"

وانتظرت أن يعلق.. أو يرسل رسالة..

دقيقة.. دقيقتان.. ثلاث.. أربع.. خمس.. عشر.. ربع ساعة.. الانتظار يحوّل الثواني لأيامٍ مملة، وبعد نصف ساعة بعد أن جحظت عيناها في الشاشة علق:

"فعلًا الواحد ماينفعش يفوّت الفرصة دي"

قفزت رحمة لفرط فرحتها أطاحت الموبايل في السقف..

ثم قفزت لحقيبتها، أخرجت الصندوق الخشبي الصغير، احتضنته في رقصات طفولية عشوائية. وجدها نضال فرصة ذهبية للقائها برضاها.. فابتسم انتصارًا، وهي تُسهّل له موعدًا.. تحت أي مسمى أو أي سبب.

نامت رحمة وقلبها يترنم:

عقلي يسأل..

هل يرونا كما نراهم

أم قلوبنا وحدها تبصر

أتذكرنا مشاعرهم

أم نبضنا وحده يذكر

***

10

ظل يحلم أيامًا بمجيء موعد قافلة زيارة دار الأيتام، ويُمنِّي نفسه برؤيتها بإرادتها، وعندما جاء الموعد كان أول المتطوعين ذهابًا لمكان التجمع.. انتظرها.. أتى بعض أفراد القافلة، تعرّف إليهم، وكتب اسمه ليثبت الحضور، وانتظرها.

اكتملت القافلة، وركبوا الحافلة وهو يتلفت لعله يراها.. حتى انطلقوا لمقصدهم، ظل يُمنِّي نفسه في الطريق أن يجدها سبقتهم لدار الأيتام.. لكن.. عندما وصلوا لم يجدها، ظل شارد البال يبحث عنها في كل الاتجاهات أثناء تحضير المتطوعين الطعام والحلوى والألعاب للأطفال، وكان من نصيبه نفخ البلالين.. ففرقع شروده الكثير، وبدأ الحفل باللعب مع الأطفال، ومشاهدة أفلام الكارتون، وإشعال

المسابقات، والرسم على وجوههم.. انتهى اليوم، ولم تأتِ، عاد يضرب الأرض بقدميه، يكاد يخرج منها مياهًا جوفية.

كيف سمح لها أن تتلاعب به؟!.. لكنها لم تعده بمجيئها؟! ربما دلّته على الخير فقط !!.. لكنه لم يأتِ إلا لرؤيتها.!! ماذا لو علمت الفتيات اللاتي يتمنين الجلوس معه دقيقة!!..

ضحك ساخرًا من نفسه اللي بنعمله في الناس هيتعمل فينا، ولا إيه!!.

قادته قدماه لأحب الأماكن لقلبه، وأكثرها راحةً نفسية له لعله يهدأ مما يوقد داخله.. وصل شارع المعز لدين الله الفاطمي، جلس على سلالم مدخل جامع برقوق، وظل يأكل اللُّب بعصبية واضعًا سماعتي الهاتف في أذنيه يسمع أغنية:

"بروحي فتاة بالعفاف تجمّلت..

وفي خدها حب من المسك قد نبت..

ولما طلبت الوصل منها تمنّعت"

جلس ما جلس من الوقت، وعاد بيته.. فوجد منها رسالة على الفيس بوك.. فيديو بسيط مكوّن من لقطة واحدة له أثناء نفخ البلالين، وتلفّته، وشروده أثناء ملاعبة الأطفال، وكتبت له..

"أنا إللي كنت لابسة دبدوب باربي.. كده متعادلين 1-1.. الله يسامحك بقى فرقعتلنا نص البلالين".

قرأ كلامها.. أعاد تشغيل الفيديو.. انفجر ضاحكًا بهيستيرية، وكرَّر بصوت عالٍ:

"أيوه اللي عملناه اتعمل فينا"، ثم كتب لها:

"كأنك مصوّرة نفسك بعد ما اديتك الفيديو اللي صورهولك، وبقيتي ماشية تتلفتي في الشارع".

انطفأت ابتسامة انتصارها، وتصلبت أصابعها، وهي تكتب:

"عرفت إزاي !!..

انتشى صدره، وزادت هيستيريته، وكتب:

"لما شوفت اللي صورتيهولي توقعت رد فعلك.. كده أنا الكسبان 1-2"

***

كل شيء ينقص بالقسمة.. إلا السعادة تزيد وتتضاعف بزيادة العدد المقسمة عليه وتعود على صانعها بأكبر فائدة، ولقد تأثّر نضال بزيارة دار الأيتام رغم شروده ببحثه عن رحمة.. لكنه أحسَّ مشاعر ما أحسها يومًا.

احتياج الأطفال للعب مع المتطوعين والتهافُت عليهم، واحتياجهم للاحتضان أشعره بكنوز يمتلكها دون معرفة قيمتها.. أضاء تأملاته عشوائية مشاعر الأطفال وتضاربها بالنسبة لعمرهم، واستوقفته كثيرًا، فكون طفل تجاوز الثانية عشرة من عمره وكل ما يتمناه أن يُحمل على كتف متطوع يجري به ويقفز على أصوات الموسيقى لهو شيء عظيم فلو كان طفلًا تربّى في أسرة طبيعية،واستقى القدر الطبيعي من حنان، وتدليل الأبوين لما كانت تلك أمنيته، ولو كانت لما كانت بتلك اللهفة في ذلك العمر، وبعد فقرة طويلة من الرقص واللعب.

جاء وقت الطعام فجلس كل متطوع مع الطفل المسئول عنه فكان مصطفى بصحبة نضال.

مصطفى:

– والنبي والنبي نكمل لعب مش عايز آكل.

نضال:

– كان زمانك كلت بدل ما تتكلم.. صدّقني هخليك تزهق من اللعب.

مصطفى:

– خالص مش هزهق من اللعب.. أصلًا محدش بيجي يلاعبنا غير في العيد. يا عمو نفسي ما تمشيش خالص.. أنا بحبك.

أبطأت أنفاس نضال تأهبًا لاختناق عينيه بالدموع.. فاحتضن الغلام ربت على ظهره، ومسح على رأسه.

نضال:

– أنا كمان بحبك أوي، وبعدين إحنا اتفقنا أنا أخوك الكبير صح.

أدار مصطفى يديه حول عنق نضال، وغاص برأسه في صدره.

مصطفى:

- مش عايزك تبقى أخويا.. لما الناس بتيجي تشوفنا كلهم بيقولوا إنهم أخويا الكبير، وأحبهم وبعدين يمشوا، ومش ييجوا تاني.. فهقولك يا بابا عشان ما تمشيش.

لم يتمالك نضال دموعه فزاد حضنه لمصطفى يُقبِّل رأسه حتى بكى الغلام فمسح دموعه.

نضال:

- بتعيّط ليه يا حبيبي؟

مصطفى:

- عشان هتمشي، ومش هتيجي تاني.

نضال:

- متخافش.. وعد هجيلك تاني.

مصطفى:

- طب شيلني على كتفك يا بابا.

نضال:

- ااااخ منك ضحكت عليا، وماكلتش.. طب هشيلك بس بشرط تاخد الساندوتش ده.

وحمله وانطلق في الحديقة تاركًا الهواء يجفف دموعهما، وينبت بهجة الفرحان بعد حرمان.

ظل يحكي لرحمة كيف أثَّر فيه الأطفال، وشكرها على منحه تلك الفرصة التي فتحت لقلبه أبواب الراحة، وبين جملة وأخرى يلعن أولئك الذين أتوا بهؤلاء الأطفال إلى الدنيا سفاحًا، ويفكر في مشاريع خيرية لهم، ورحمة تنصت لحكاياته وتتذكَّر كيف كان ملهوفًا على الأطفال وبين الحين والحين يبحث عنها.

رحمة:

أحلى حاجة التطوع بيخلي الواحد يكتشف نعم ربنا عليه، ويحس بيها.. الله يرحمك يا بابا. حسّيت بقيمته أوي، وأد إيه كان حنين، وبيهتم بكل حاجة فيا، وكل الدنيا يتمنوا أب زيه، يوم زي اللي قضيناه في الدار يخلي الواحد يروح يبوس إيد ورجل اللي عايش من أبوه وأمه.

غصَّت كلماتها في صدره، وفتحت جرحًا في أعماقه.. أحس بثقل النفاق يطبق قلبه..كيف يتأثر بكلمات مصطفى، وعلاقته بأبيه فيها ما فيها من جحود؟!

***

11

الراحة التي أحسَّها أجبرته أن يجعل وقت فراغه للتطوُّع بعد أن كان في البداية هدفه رؤية رحمة، صار انجذابه للتطوُّع نفسه، وتكرر اشتراكه في الأنشطة الخيرية حتى صار عدة أيام في الشهر، وكل يوم يتسع كلامه معها في ابتكار ما يفيد التطوُّع. ثم تدرّج كلامهما، وانساب للتعارُف الشخصي، ومع الوقت توغّل كلٌّ منهما في أدق تفاصيل حياة الآخر، وزاد الانجذاب وتضاعف الارتياح.. وجد كلٌّ منهما ما ينقصه في الآخر، وجدا الاكتمال والكمال إذا التقيا، مع أن الكمال لله تعالى، والإنسان مهما يحاول الوصول للكمال تظل محاولاته إثبات نقصه.

أما أرواح المحبين إن التقت وتعانقت بصدقٍ صارت أحد تجليات الله لعباده، وكان الكمال أحد صفاهّا؛ لذا..ازدادت محادثاهّما حتى صارت

نفلًا ثم فرضًا، ونصَّب كلٌّ منهما الآخر قاضيًا على ماضيه، يُقرُّ صوابه، وينكر خطأه، وعرفه كما لم يعرفه أحد قط. أتاها من حيث تريد دون أن يدري باهتمامه بأدق تفاصيلها وما يطرأ عليها من أبسط تغيير، وربطهما رباط الصداقة أكثر من رباط الدم والعائلة.

وبعد أن كان اهتمام رحمة بأنشطة علاج الفقراء بالمجان، والقوافل الطبية أصبح اهتمامها بدور الأيتام والمسنين لحاجة في نفسها وجدتها ضرورية كلما توغلت في ماضي نضال فنظمت يومًا لزيارة دار مسنين وكانت تخطط لتعريفه بسيدة تقطن الدار منذ زمن ولها قصة مؤثرة.. قد كانت الحاجة سناء وكيلة وزارة في شبابها، ومن أسرة بين أفرادها ترابُطٌ ومحبة، لكنه القدر..

في رحلة مصيف لأولادها الثلاث البارين بأبويهم.. تصادمت سيارتهم في حادث مؤلم وفارقوا الحياة وبعد فترة قصيرة فارق زوجها الحياة، صارت وحيدة في بيتها.. فآثرت العيش في دار المسنين على نفقتها الخاصة، فكان المتحدث معها يجد كلامها مفعمًا بالحنين للأسرة تشعر الجميع بقيمة اللحظة بين قلوب أسرة واحدة، وكم هي نعمة لا تقدر بثمن.. أحبَّها نضال وكرَّر الزيارة لها عدة مرات. أثارت معرفتها عطشه للحياة الأسرية ودفء بيت العائلة، تمنى لو كان يعود بيته يقبل رأس أبيه ويجلس معه يأكل.. تمنى لو كان الود وصلة الرحم نسيمًا يتوج علاقته بأخيه، يهتم كلٌّ منهما بحياة الآخر ويعيشان معنى الأخوة تمنى أن يعود بيت العائلة ولكن..! كيف يعود البيت الذي طرد منه

يومًا!!.. حتى لو نسيه أبوه فهو لن ينسى !!.. تمنى أن ينسى وتمنى أن يجد ترحابًا لو عاد.. لكن كبرياءه منعته أو ربما خوفه.

وذات يوم.. دون علم رحمة قام نضال بتصوير حلقة برنامج في دار الأيتام واستضاف الأطفال المتفوقين دراسيًّا وفنيًّا ورياضيًّا، وفي اليوم المحدد لعرض الحلقة حدد موعدًا ضروريًّا مع رحمة في الدار.. جلس الجميع في صالة الاستقبال أمام التلفاز ومصطفى في حجر نضال محيطًا رقبته بيديه وخده على صدره، بدأ عرض الحلقة، فنظرت رحمة نظرة الرحمة لنضال فدخل الجنة في وقتها بها ولم يدرك ما يحدث.

الجميع سعداء.. هلّل الأطفال فور مشاهدتهم أنفسهم في الشاشة ساعة من الفرح المتواصل كيوم عيد، انتهت الحلقة، وانطلق الأطفال يتحاكون، ويلعبون، وشكر القائمون على الدار نضالًا.

وفي الحديقة:

رحمة:

- فخورة أوي بيك يا صديقي.. فرّحتني أكتر من الأطفال.

نضال:

- إحم إحم.. دي أقل حاجة عندي.

رحمة:

– حقك تتنطّط علينا.. تعرف أصلًا البني آدم الطموح اللي جوّاك، والمعاني الروعة لإصرارك في الوصول لمكانتك وحدك، ومن غير أي وسايط.

كانت يداه خلف ظهره يقبض اليمنى بقوة.. لكن كلامها أرخى شدة أعصابه، وانفرجت شفتاه مبتسمتين ليبرز عرقٌ في نصف جبهته ما بين حاجبيه.. يتأمل نفسه في كلماتها منتظرًا ماستؤول إليه بعد مدحه.

رحمة:

– متأكدة جدًّا إنك هتقدم اللي يفيد الناس ده مهنتك أقوى وسيلة للتحكم في عقول البشرية.

نضال:

– ما أنتِ عارفه قبل ما أركز في الكليبات، والإعلانات اشتغلت برامج دينية، وثقافية، وأخرجت فيلم وثائقي اسمة "تلك بدايتي دون خجل" عن قصة كفاح، ونجاح رجل الأعمال سيد القرش صاحب شركات قزقز للشيبسي، وعن براءة الطيبين حين يمنحون الفرصة لأحبائهم أن يثبتوا براءهم ويقصوا بطولاتهم في الخير.

أكمل نضال:

– تعرفي الفيلم ده نزلنا صورنا مزارع البطاطس، وصورنا مع الفلاحين من أول زراعة البذرة لحد ماكيس الشيبسي يتقدم للمستهلك.. ياااه فكّرتيني بأيام بنت لذينه فيها كمية ضحك.

رحمة:

- إحكي وضحّكنا.

نضال:

- ناجح مزارع وحيد ماهوش أي إخوات رجالة، وفي نفس الوقت دخل الجيش 3 سنين.. تخيّلي!

رحمة:

- إزاي يعني ده الوحيد بياخد إعفاء من الجيش!!

نضال:

- أصله من قرية جوّا نجع من جوّه كفر.. من الآخر ما شافش الأسفلت غير في التليفزيون، أبوه جوزه وهو عنده 15 سنة لواحدة عندها 13 سنة.. طبعًا جواز إشهار بدون أي ورق قانوني لإنهم مكانوش طلعوا بطاقة شخصية.. بعد سنة مراته خلّفت.. احتاروا إزاي يسجلوا المولود، ويعملوله شهادة ميلاد لابنهم، ومافيش ورق يثبت جوازهم.. بعد تفكير قرروا يسجلوا المولود على اسم جده، وبالتالي بقى في نظر الدولة ناجح ليه أخ، ودخل الجيش 3 سنين.

لم تشاركه سعادة الحوار، وكلما زاد تفصيلًا في قصته عبثت ملامحها

رحمة:

– فرحان بجهل الغلابة، وكمان دخل 3 سنين جيش يعني أُمِّي، ومش متعلم أي شهادة، مفروض موقف زي ده يخلي جواك طاقة كبيرة تساعد الغلابة وتوعي الجهلة.. يا ريت..

نضال:

– أعوذ بالله.. في لحظة قلبتي، وشك بعد ما كنتي فرحانة بيا، وأل فخورة بيك أل !!..

رحمة:

– لا طبعًا.. أتنرفز، وأدايق، وافضل فخورة بيك.. الله.. أمال أطلّع همي في مين يا صديقي؟!

***

12

في غرفة التحكُّم بأستديو القناة كان منهمكًا في توجيه فريق عمله من مصورين ومونترين وفنيين لتصوير برنامج يُذاع مُباشرةً مُستضاف فيه أشهر الراقصات تتحدث عن كفاحها في إيصال الشهوة للناس، وتنطق اللغة العربية بطريقة متهتكة تتخللها بعض الكلمات الإنجليزية. تلك الراقصة الروسية التي مهَّد لها الإعلام بضجة كبيرة مبالغ فيها في زمن الثورات العربية ليزحم عقول الثوار بما ينقصهم من شهوات فيختلط عليهم هدفهم الأصلي في تحقيق العدالة الاجتماعية.

ولو ركز الإعلام ضوءه على العلماء والمفكرين، وفرضهم على الجمهور بطريقة مسلية لتغيَّر الوطن العربي،ولدارت تروس عقله الصدئة.

تضع الراقصة قدمًا على قدم كاشفة فخذيها من خلف فستان يستر حدود سوءتها، وكان توجيه نضال للمصورين أن يركزوا الكاميرات على وجهها دون مفاتنها.. حتى حين قامت ترقص وجَّههم لتصوير أكفِّ الجمهور في تصفيقه، وتصوير المسرح من بعيد مع ابتسامات الجمهور دون إحداث إثارة لشهوة المتفرج، وبمجرد انتهاء الحلقة استدعى مدير القناة نضالًا لمكتبه:

المدير:

– مش قادر أستوعب إنك اللي أخرجت الحلقة البايظة دي..!!

نضال:

– بايظة ليه بس؟

المدير:

– حسّستني إنك بتصور شيخ الأزهر مش رقّاصة فرفوشة جئتها جيبالنا إعلانات بالكوم.

نضال:

– معلش بقى ناس محترمة تبعي كانوا بيتفرجوا على الحلقة، وماحبّتش أكون في نظرهم قوّاد.

المدير:

– قوّاد..!! إيه الكلام الغريب ده.. مالك!!

نضال:

– ياريت قواد بس.. إحنا أقذر من القوادين بمراحل،والله قرفت من كتر الوساخة وبلاش نضحك على نفسنا، ونقول فن.. الفن أرقى من حصره في القذارة وتهييج الجمهور.

المدير:

(ضحكَ عاليًا، وأكمل ساخرًا):

– جاي تدّيني محاضرة في تاريخ الفن يا سيادة المخرج!! ناقص تقول إحنا أصحاب رسالة، والفن هو تبسيط العلوم، والتاريخ بشكل مُسلّي للناس.

نضال:

– العين ماتعلاش على الحاجب.

المدير:

– هزّرنا كتير نتكلم جد بقى.. بلاش تكرّر اللي عملته... طول عمرك مخرج شاطر.

نضال:

– أصلًا كنت عايز أطلب تنقلني قسم الأخبار، والبرامج الدينية، والثقافية اللي مابناكلش عيش على قفا رقاصات.. ابعدني عن الجثث.

المدير:

– بتتكلّم جد !!

نضال:

– أنا رجل شعبي، وشرقي، ومش عايز أكمل نجاحي على جثث النسوان.. كفاية اللي فات .

***

13

في المساء كان نضال واقفًا أسفل بلكونة عبد الله يناديه ليذهبا الجيم، وفي طريقهما:

نضال:

– في حوار شاغل بالي، ومش هعرف أتمرن طول مهو بيزن فنافوخي.

عبد الله:

– خير..؟

نضال:

– فاكر لما كنت مروّحني بعد ما اتفرجنا في القهوة على كليب أح ودح؟!

عبد الله:

- تمام.

نضال:

- كنت بتقول الاحتلال، وبتقول ليه علاقة بنشأة الإذاعة، والتليفزيون في الوطن العربي.

عبد الله:

- يااااه إنت لسه فاكر.. ده أنا نسيت.

نضال:

- صحصح، وافتكر عشان التفكير هيجنّني.

عبد الله:

- أعرف الجانب إللي يخصني.

نضال:

- إشجينا يا معلم الأجيال.

عبد الله:

- صلّي على النبي.

نضال:

- عليه الصلاة والسلام.

عبد الله:

- الاحتلال الفرنسي، والإنجليزي ماجوش بالسلاح بس، كان معاهم مفكرين، وعلماء.

نضال:

- فكرتني ببداية حصص التاريخ في إعدادي بتاعة الحملة الفرنسية.

عبد الله:

- أهو كلمة "الحملة الفرنسية" في حد ذاتها كانت هدف الاحتلال.

نضال:

- إزاي..؟

عبد الله:

- المحتل درس ثقافة الدول اللي هيحتلها، وفهم استجابة الفرد لتأثير الألفاظ عليه فكلمة "احتلال" ليها رد فعل عدواني.. لكن "حملة" أخف بكتير، وليها معاني رد فعلها عاطفي مثلًا "حملة طبية" فنشر الاحتلال مصطلح الحملة الفرنسية عشان يقلل تأثير ارتباط الثقافة بالرد الفعل العدواني للمصريين.

نضال:

واضح الموضوع كبير.. كمّل كمل.

عبد الله:

- كان من أهم خطط الاحتلال تقليل العاطفة بين المواطن، ووطنه لإضعاف المقاومة، طبعًا مش هيروح للناس يقولهم أكرهوا بلدكم فيكرهوها.. فزرع جواهم سخرية منها خلاهم يحتقروا أصولهم.. لخلخة ثقافتهم.

نضال:

- الكلام ده طبّقوه إزاي؟

عبد الله:

- أول خطوة تقليل مكانة رجل الأزهر سواء كان شيخ.. أو مأذون.. أو مدرس عربي.. معظم أفلام الأبيض، وأسود لو ظهر رجل أزهري.. لازم يكون مسخرة، وعبيط وساذج، ولازم يضحكك على طريقة لبسه ونطقه للغة العربية الفصحى.

نضال:

- تصدّق كلامك يدعو للتفكير أوي.. حتى مُدرّس اللغة الفرنسية أو الإنجليزية يحببك فيه، ويحسسك بوقاره وإنه رمز التحضر والتفتح .

عبد الله:

– وفّرت عليّا كتير.

نضال:

– أي خدمة هههههه.

عبد الله:

– كل مُحتل هدفه يؤصل ثقافته في الدول المحتلة، ومدخل الثقافة اللغةو والدين فكان لازم يعظموا لغتهم ويحتقروا لغتنا، وفي كتاب اسمه "ودخلت الخيل الأزهر" المؤلف مكانش لاقي وصف يوصف بيه الهزيمة إللي كنا فيها بأكتر من دخول المحتل الجامع الأزهر بخيوله لأن عظمة الأزهر كانت عالمية مش مجرد مصر أو العرب، وقاومنا الاحتلال، ورحلت جيوشه لكن حافظنا على ثقافته وفكره فينا.

نضال:

– يا سيدي ياريت نبقى زي فرنسا أو أمريكا.

عبد الله:

– هنفضل زي ما احنا، ونزيد تخلف طول ما احنا نفسنا نبقى زيهم.. عمرنا ما هنفوق، وننجح إلا لو أدركنا إننا لازم نبقى نفسنا بلغتنا وثقافتنا وطبيعة شرقيتنا، وطول مابنقول ياريتنا زيهم هنفضل متخدرين ومبهورين بحضارة وثقافة استحالة تطبق على واقعنا، وهنفضل مجرد سوق مستهلك للي احتلونا زمان عسكريًا ودلوقتي فكريًا.

نضال:

– والله عندك حق فكّرتني بأيام الثورة لما الإعلام اعتمد على إذاعة أخبار مغلوطة عشان يقتل الثورة.. ما بالك الاحتلال كان بيعمل إيه فينا!!..

عبد الله:

– يا دوب فرّغ عقولنا ثقافيًا، وحشاها تفاهات، والملخص في كلمة المفكر الفرنسي..

"سنبثُّ لهم ما نريدهم أن يكونوا عليه.. وليس ما هم عليه"

نضال:

– إنت شيّلتني مسئولية كبيرة بشغلي.

عبد الله:

– أكيد جزاءك أكبر عند ربنا لو بقيت مصدر وعي للناس.

نضال:

– بس في حلقة مفقودة..!! الاحتلال رحل، وبعد ما كان القائمين على الإذاعة محتلين بقوا مصريين طب ليه محافظين على فكر المحتل؟! وليه مخلينا سوق مستهلك مش منتج؟!

عبد الله:

- عشان لو بقيت منتج معناه عقلك اشتغل وبتفكر، واللي بيفكر بيطالب بحقه، ومعظم رجال الدولة عايشين على استعباد الشعب، وتنمية غباؤه، وقتل الفكر، والتفكير.

نضال:

- وتخديره بالوساخة في الكليبات، والأفلام.

عبد الله:

- تعرف.. وقت ما الاحتلال كان بينشر تفاهة للشعوب العربية عشان يخوخ عقولهم ويفرغها فكريًا.. كان بينشر العلم والفكر في بلاده.. سنة 1945 م وقت هجرة اليهود لفلسطين بخطة مافهمهاش العرب غير بعد فوات الأوان، وصلت أسرة يهودية لأحد الموانى واتجمع العمال العرب يتزلوا عفشهم من السفينة.. فوقع صندوق، واتفتح لقوا جواه آلات صغيرة تشبه الأسلحة أطول من المسدسات وأصغر من البنادق.. بس وقتها العرب كل معرفتهم عن السلاح إنه كبير زي بنادق الثورة العرابية.. المهم.. المهاجر اليهودي توتَّر لكنه عارف جهل العرب وقتها بالتقدُّم، ومدرك أد إيه عقولهم حشاها الإعلام تفاهة، وما أذاعش تقدم العالم في تطوير السلاح، وان البنادق والرشاشات بقيت صغيرة جدًّا مقارنة بصورة السلاح في أذهان العرب.. فأقنعهم اليهودي إن دي لعب أطفال وكملوا شغ .. تخيل كان مين اليهودي ده؟

نضال:

- مين؟

عبد الله:

- "مناحم بيجين"، وكانت دي أكبر صفقة سلاح دخلت فلسطين، وكانت سبب المذابح.

نضال:

- كل ده من الإعلام.. نهار أخضر..!! أح ودح، وألف أح .

أخذهما حوار طويل أمام الجيم، ولم ينتبها إلا وقت إطفاء لافتته، والعمال يغلقون الباب.. أفرغ نضال أحمال قلبه، وفضفض بكل ما يثقل روحه.. حكى عن كل ما دار بينه، وبين المدير، ومدى فخره بنفسه، وقراراته الأخيرة، وعبد الله منصتٌ ببريق عينين لا تصدقان ما تريان وتسمعان .

عبد الله:

- إيه خلاّك تبوّظ حلقة الرقاصة؟

نضال:

- بقالي فترة حاسس إحساس غريب، وممتع.. حاسس الأنثى أقدس من إني أخليها أداة جذب لإعلاناتي، وكليباتي.. إحنا بنرخّص الأنثى لما نحصرها في جسمها، بنرتكب جريمة لما نخلي قيمتها مفاتنها .

عبد الله:

- أوبااا.. رحمة غيّرتك كتير..

نضال:

- فعلًا.. حاسس إني بسببها وصلت لنفسي الحقيقية.

عبد الله:

- على رأي الشاعر إليا أبو ماضي:

"أنا بالحب قد وصلت لنفسي .. وبالحب قد عرفت الله"

نضال:

- والله شاعر زي الفل.. تعرف رحمة خليتني أشوف بقلبي عظمة ربنا في الأنثى.. كل حاجة حلوة في حياتنا مؤنثة، الحياة والفرحة والسعادة والجنة والمتعة والفطرة والرحمة.. الأنثى هي الأم هي القدسية، والطهارة وماتستحقش الجرايم إللي بنرتكبها في حقها باسم الفن.

عبد الله:

- نفسي تفضل على حالك ده.

نضال:

– نفسي مراتك ماتضربكش عشان اتأخرت.

عبد الله:

– دي بقيت تفرح لما تعرف إني قابلتك، بتقول إنك بديت ترجع نضيف زي زمان.

افترقا، وقد ارتاح نضال كثيرًا وهدأ قلبه.. فلمجرد ذكر سيرتها يطمئن ويرتاح باله. قادته قدماه للتوغُّل في الشوارع الخاوية واستنشاق نسيم الليل الهادئ دون زحام القاهرة، لم يكن يفكر ولا يشعر بكثرة المشي.. كان هائمًا كالدرويش، وقرآن ما قبل الفجر يخرج من الدكاكين المغلقة التي ترك أصحابها الراديو يعمل على محطة إذاعة القرآن الكريم.

توقف تاكسي أمام بيت حسين نزلت منه فتاة لمجرد أن لمحها دخل من الشباك.. انتظرها خلف العين السحرية لباب شقته.. صعدت، وقبل أن تطرق الباب جذبها للداخل وأوصده بالمفتاح، مع أنه مطمئن من سفر أهله لأقاربه في الريف .

ودخل نضال الجامع الأزهر حافيًا فسرت برودة بلاط ساحة الجامع في أوصاله،وفُتِح قلبه بسكينة التواشيح الممهدة للأذان..توضّأ فانتعشت روحه ببرودة المياه، ثم رُفِعَ الأذان فانصهرت روحه في الصلاة وقد

هيَّأت أحداث يومه السلام الداخلي بقلبه، وبعد انتهاء الصلاة جلس في أحد أركان الجامع ممدًا ظهره محلقًا بصره في الفوانيس المدلاة من السقف وبداخله سلام وتسامحٌ للعالمين.

تلك اللحظة التي ترتقي الروح فوق أي شرور.. ننسيَ الحقد والغل ولا نعرف شيئًا عن الكره، كل ما ندركه الحب والتسامح والسلام الداخلي. غربتْ عينا نضال في نوم للجسد وسكينة للروح.

وقضى حسين متعة مأجورة ارتشف جسده شهوة متعتها حيوانية لا تعرف صفاء الروح ولا استنشاق رياحين الحب وراحته، والتحليق بالنشوة في أعلى عليين.. جلس مرتديًا بنطاله فقط على طرف السرير ينفث دخان سيجارته، وبيده الأخرى ولاعة يشعلها ويطفئُها بانتظام متكرر تاركًا الساقطة تنتهي من ارتداء ملابسها دون أن يعيرها اهتمامًا أو حتى يرمقها بطرف عينه .

استيقظ نضال بشروق الشمس مرتاحًا، وكأنه ينام للمرة الأولى بحياته، جلس مستندًا على عمود، ولا يدور بعقله إلا تذكُّر حوار دار بينه وبين رحمة من شهور..

نضال:

– بابا جاله زهايمر بعد موت أمي بسنتين تقريبًا، وبقى عايش مش عارف اللي حواليهو وقبل الزهايمر طردني بعد موت أمي، وقال:

"لما أموت ماتمشيش في جنازتي "، وأخويا الكبير بردوا اتبرأ مني قدام الناس.. تخيلي بيخاف أشوف مراته في الشارع حتى!!.

رحمة:

– ياالله! معلش.. مقدرة اللي انت فيه.. بس تعالى نصلّح الأمور، وطالما نويت تقدم الخير بشغلك أكيد أهلك هيفتخروا بيك.

نضال:

– أبويا مش هيعرفني حتى لو بقيت نبيّ.

رحمة:

– بجد لو شافك مش هيعرفك؟

نضال:

مش عارف أي حد حواليه.. عقله فاكر شكلنا وإحنا أطفال بس.

رحمة:

– لو هو مش عارفك إنت عارفه، ومهما عمل فيك ليه حق إنسانيًا، ودينيًا قدام ربنا، وبلاش أقولك كلام حافظينه بإنه بعد ما كبرك هجره، وعشان لما أدورلك على عروسة توافق بيك علطول لأنك لو مراعي ربنا في أهلك هتأمنك على نفسها، ولاّ إيه؟

لم يكن بباله سوى فكرة واحدة.. أن يزور أباه دون تردُّد أو ترك مساحة للتراجع..اشترى طعامًا للفطور وعصائر، واستقل تاكسي لبيت أبيه.. طرق الباب فتح أخوه، وكان مستيقظًا يستعد للذهاب لعمله.. لم يتوقعه أخوه على الباب، ولم يتلهف إليه في سلامه كما هو المعتاد في المرات المتباعدة التي يزورهم نضال فيها.. الفارق تلك المرة ما كان بداخل نضال من حبٍّ وتسامح.. التسامح الذي جعل يوسف صلى الله عليه وسلم يقول لإخوته "لا تثريب عليكم اليوم"، وسامحهم بعد أن ألقوه في البئر غدرًا، وتسببوا في ضياعه عمرًا من أبيه يربيه من لا يعرفه، ونفس التسامح الذي جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم يقول لأعدائه الذين حاربوه "اذهبوا فأنتم الطلقاء" بعد أن عاد يمتلك قوة إبادهم، وتأديبهم على تضييقهم الدنيا عليه حتى هاجر.

تلك الدرجة من التسامح التي يدرك الإنسان بها فناءه في الدنيا ويتطلع للخلود في حياة أبدية صافية.

احتضن نضال أخاه بإخلاص فنقل إليه مشاعره الصادقة، ودخل لأبيه فأيقظه وعانقه بحنين.

أعدت زوجة أخيه الفطور، وجلسوا جميعًا في بهجة أسرية وكأنهم لم يتفارقوا لحظة، ثم نزل نضال مع أخيه أوصله لعمله وظلا يتبادلان كلامًا تشعه القلوب.. أدرك نضال حين عاد إلى شقته على السطوح أنه

ما انقطع عن أهله لقسوتهم، بل لأنه رآهم هكذا فصنع سورًا بينه وبينهم، وأبوه لم يطرده بل هدَّده فصدَّق التهديد وتعامل على أساسه.

فمعظم الوقت لا نعيش الحقيقة بل نعيش ما نظنه أو نتمناه حقيقة، ولو أعطينا الفرصة لقلوبنا، وهدأنا قليلًا لقادتنا أرواحنا للفطرة ولقادتنا الفطرة للحب والتسامح، فنعيش بمبدأ خيرهم الذي يبدأ بالسلام، ولبادرنا بالخير وكسبنا علاقاتنا قبل خسارتها، وأخمدنا شرورًا ما كان لها أن تشتعل إلا بسوء الظن.

وكان هذا الصفاء لا ينقصه إلا مهاتفة رحمة، وإخبارها بما حدث ففرحت وكأن أباها عاد للحياة..

رحمة:

- سمّعتني أحلى خبر على الصبح يا صديقي.

نضال:

- ما أقدرش أكون فرحان وما اتصلش بيكي.. عارفك بتفرحي لفرحي.

رحمة:

- يارب أشوفك فرحان علطول.. بقولك إيه على سيرة الناس الكبيرة وحشتني ماما سناء تيجي نزورها الأسبوع ده..؟

عندما ذهبا لزيارة الحجة سناء، وبعد قضاء ساعات معها، وأثناء إيصالها غرفتها كانت تستند على يد نضال، وتستند باليد الأخرى على رحمة.. يتمشون في طُرقة الدار.

رحمة:

- أنا، ونضال عايزين نعرف رأيك في حاجة.

نظر لها نضال ولا يدرك ما تريد، فأكملت:

رحمة:

- واحد زميلنا كويس جدًّا بس عيبه مقاطع أهله، وعايش في شقة لوحده، ومش بيشوف أبوه غير مرتين تلاتة في السنة.

الحاجه سناء:

- وده إزاي سايبينه كده..!! لا حول ولا قوة إلا بالله.. لازم تجيبوهولي أقعد أفهمه إنه بيحرم نفسه من الراحة قبل ما بيحرم أهله.

نضال:

- (مندفعًا) على فكرة نسيت أقولك إنه خد قرار يرجع يعيش مع أبوه، ويمكن رجع.

أكملت الحاجة كلامًا كثيرًا لم يسمعه.. تاه في نفسه.. الآن فهم سبب إصرار رحمة أن يزور المسنين، الآن فهم لماذا أوقدت فيه عاطفة

الاهتمام بهم، والجلوس لسماعهم مهما تكررت حكاياتهم وفي نفس الوقت على التوازي أوقدت فيه حب الطفولة وأخرجت منه كل ما دفنه من خير ومشاعر.. فقط.. أعادت فيه بريق الفطرة، وأبدعت في تنفيذ أهم بنود الحب وهو..

"سيحاولون تقريبك من الله بقدر حبهم لك.. إن أحبوك بصدق"

فسلامٌ على الذين إذا دخلوا القلوب أصلحوها مهما كان خرابها، وجعلوا أهلها صالحين.

***

14

بُنِيَ الإنسان على قلب.. سُميَ القلب قلبًا لسرعة تقلبه في المشاعر التي تغير نظرتنا للأشياء.. فحين تمتعنا مشاعرنا تجاه شيء فإننا نحاول تعوُّدَه حتى لو كان ضدنا.. فيصير انجذابنا إليه عادة ثم طبعًا يميز شخصيتنا.. فكيان الإنسان مبني على قلب..

شهورًا معدودات قلبت الأحوال صارت رحمة هي العدسة التي يرى العالم منها ملونًا مبهجًا.

اعتاد أشياء ما تخيلها يومًا.. أنهى جميع التزاماته القديمة، وبعد عناء مع مدير القناة صار مختصًّا بقسم الأخبارو والبرامج الحوارية، وقليلٍ من الإعلانات المناسبة لحاله الجديد..

عاد للعيش مع أبيه في بيته المكوّن من طابقين،طابق يعيش فيه أخوه، وطابق عاش فيه مع أبيه، تأمَّل ماضيه فوجد أباه كان على صواب في

معظم الأمور.. إلا أنه لم يحتضنه وقت قرر أن يكوِّن ذاته وأن يحقق ما أحبه في الفن.. كان على أبيه أن يحتويه ويجعل منه مخرجًا صالحًا.

صار يدَّخِر أمواله لشراء خاتم الزواج ومصاريف بداية بناء أسرة، ورغم نجوميته أموال مهنته لا تكفي، فعاد إلى طريقه القديم لجمع المال وقت كان طالبًا.. بالعمل في أحد المطاعم، وكثيرًا ما كانت تُعرض أعماله أثناء تقديم الوجبات للزبائن أو تنظيف الطاولات، وللكفاح متعة حين نجد تقديرًا من ذاتنا لأنفسنا ورضا بما نعمل مصحوبًا بتقدير من نكافح لأجلهم ولو بنظرة.

صنع حملة توعية الفلاحين، وتعليمهم طُرقًا للزراعة الحديثة، وأأْمَن الطُّرق لنقل المحاصيل من الحقل إلى السوق، وطرق التسويق، وبورصة الزراعة بشكل مبسط، فكانت أسرع حملة يصنعها ويتقنها، وبدأ عرض الحملة في القنوات.. أثّرت في الجمهور،صارت حديث الكثير.. مفعولها يعمل.. الأحلام تتحقق.. الهدف يقترب..

تديُّنه لم يجعله كئيبًا بل زاده بهجةً وإشراقًا، وضاعف مرح شخصيته..

لم يقلل اهتمامه القديم من ملبس وأسلوب ومظهر؛ لأن تدينه معاملة ونية في الأساس لا نصوصًا دينية ولباسًا، فما أمتع أن تستيقظ، ومن أعماق قلبك تدرك أن كل نفَس تتنفسه تنوي به الخير يعظم شأنك عند

الله، وسيجازيك به خيرًا في حياتك قبل مماتك..عملك..صلاتك.. فكاهيتك.. نومك!

حتى قضاء حاجتك في دورة المياه، وعلاقتك العاطفية..لوعة المشاعر كلها أشياء لمجرد أن تنوي أنها لإرضاء الله صارت عبادة تُجزى بها خيرًا، وفي كل لحظة يتذكر رحمة وهي تذكرة بقوله تعالى:

" قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين "

نفس تفاصيل حياته الطبيعية.. صارت ممتعة.. فقط لأنه غيَّر شيئًا داخله.. في قلبه ألا وهو "المقصد من فعل الأشياء"، وهو ما أطلق عليه "النِّيةّ".. لذا بُنِيَ الإنسانُ على قلب.

***

وذات يومٍ.. رنَّ هاتف رحمة..

رحمة:

– أهلًا يا بطل.

نضال:

– حضرتك عايز أسألك سؤال صغير ده لو عند سيادتك وقت.

رحمة:

– لا للأسف مش فاضيين.. ابقى احجز كمان سنة.

نضال:

– تمام.. متأسف على الإزعاج.. سلام.

رحمة:

– بلاش رخامة، وقول متصل ليه؟

نضال:

–أبدًا.. حاجة ملهاش لازمة، ومش مهمة خالص.

رحمة:

– قول بقى، وحياتي.

كلمة واحدة جمّدت أنفاسها:

– تتجوزيني .

تخلّت عن انفعالاتها، وفرضت مشاعرها نشوة فصلت عقلها عن الواقع.. قد كان دقيقًا في اختيار كلمة مناسبة لتلك الشرقية العربية.. كلمة تناسب عادتها، وتستهوي حياءها، فإن كانت الفتاة الغربية في السينما تسحرها كلمة "بحبك" في بداية علاقة، ولو مجرد إعجاب فالشرقية جادة حادة رد الفعل طعمها كلمة أوثق وأوضح "تتجوزيني" تشعرها باحترام الحب الواضح وأمانه وأبديته.

لم تستطع الرد.. تعالت أنفاسها حتى سمعها أكثر من أنفاسه.

نضال:

– هتستفادي إيه لو قولتلك هتاخديلي ميعاد مع أهلك أتقدملك إمتى؟

رحمة:

– والله أنت رخم.. بجد بجد رخم.. سلام.

انتفضت،خرجت من غرفتها مرورًا بالصالة تبحث عن أمها فوجدتها في البلكونة دخلت من خلفها قرصتها فالتفتت أمها مفزوعة.

أم رحمة:

– سلام قولًا من رب رحيم.

رحمة:

– نضال اتصل بيقولي تتجوزيني، وعايز آخد له ميعاد معاكي.

انطلقت زغرودة من أم رحمة لفتت أنظار المارين بالشارع للبلكونة.

رحمة:

– يادوب ألحق أتصل بسارة أقولها، وكمان تعمل حسابها ننزل نشتري طقم جديد ألبسه لما ييجي.

أم رحمة:

- ربنا يجعله من نصيبك، ويسعدك يا بنتي، ويجيبلك كل حاجة في الدنيا.

أخرجت رحمة هاتفها من جيبها فوجدت نضال ما زال على الخط فأضاء الخجل وجهها، وهدأ انفعالها.

رحمة:

- كل ده مقفلتش..؟

نضال:

- أينعم، وسمعت كل حاجة.

هَرّبت رحمة بخطوات، وهي تحدّق في أمها، وتصدر لها ردود أفعال بأن تصمت.

نضال:

- أموت في الفضايح.. زيديني يا حماتي، وقولي اللي بنتك مخبياه.

رحمة:

- صحيح.. هتلبس إيه وأنت جاي تخطبني؟

نضال:

- المفروض إنك كده غيرتي الموضوع صح !!..

رحمة:

– أبدًا يا صديقي.

نضال:

– متأكدة صديقك بس..؟

رحمة:

– خلاص خلّيها صديقي الصدوق.

نضال:

– متأكدة صديقك الصدوق بس!!..

رحمة:

– عايز إيه يا رخم..؟

نضال:

– بحبك.

رحمة:

– نعم !..

نضال:

– بقول.. سلّمي على اللي جمبك.

رحمة:

- كذاب.. ماقولتش كده.

نضال:

- أصلًا.. كل شيء آية من ربنا.. كل شيء لسبب سعادتنا، وإنتِ سعادتي، وأحلى آية من ربنا بعتها لي تقربني منه.. بحبك أوي.

خدي الجملة دي طلعت طازة في نافوخي.."في الواقع.. أنا في حبك واقع".

***

15

من أعظم لحظات الرجولة حين يفي شاب بوعده لفتاته.. يطرق بابها طالبًا يدها للزواج متجاهلًا العقبات.. متناسيًا قيود المجتمع، وعاداته، وعاهاته.. لا يهمه سوى الوفاء بوعده لفتاته موقنًا أنّ من يتقي الله يجعل له من أمره يسرًا..

مريدًا لعلاقتهما أن تكون في النور يفتخر بها شريكة حياته أمام الدنيا.. فالحب مخلوق ضوئي ينمو على النورو وليس من خفافيش الظلام، وكما قيل:

"يشبه الحب الحرب، كلاهما يحتاج رجالًا.

طرق بابها حاملًا باقة الورد، وعلبة الشكولاتة.. كانت أسرتها في انتظاره؛ والدتها وخالها وأخوها، لم يكن الجو مشحونًا بالتوتر كعادة

الشرقيين في اللحظات الأولى للخطبة، فنضال بطبعه كالماء يملأ فراغات المكان، ويأخذ شكله، وحجمه بمرح وصهيل ابتساماته، واستدراج عقل لسانه لموضوعاتٍ حوارية مع الموجودين حتى يخيل للناظر أنه من أهل رحمة، وكأنه عاش في بيتها وارتاح.

وعن إحساس البنّوتة، وهي تقف خلف الستار تسرق النظر لحبيبها، وهو جالس بين أفراد أسرتها يطلب يدها للزواج..مهما يكن استعدادها لهذا اليوم وتلك اللحظة، والتأكيد مئات المرات على الموعد مع حبيبها، وتخيُّل ما سيحدث، والاتصال به في كل خطوة منذ خروجه من بيته مرورًا بكل محطات الطريق، وقبيل دخول الحي الذي تقطنه ثم دخول الشارع الذي به بيتها ثم دخول بيتها وحتى قُبيل طرق بابها هاتفه، وبعد كل هذا تجدها خلف الستار متفاجئة بحبيبها في بيتها متوترة تطير فرحًا مقبوضة خوفًا لا تسيطر على حركات أناملها اللا إرادية.. لذا.. دفعتها سارة من خلف الستار دفعًا كي تدخل بالعصير الذي تأخَّر تقديمه لطول تأمُّلها حبيبها.. من خلف الستار.

وعن شموخ رجولة الرجل داخلهو وحبيبته تضع العصير أمامه وسط أسرتها كأول ترحيب به في بيتها، فارس تنازلت ملكته عن عرشها، واقتربت أمامه بكأس من عصير يتمناه دون أن يدرك ما هو وما طعمه.. فقط.. يتمناه، ويشتهيه لأنه من يدها.

تجلّت رحمة عليهم بالعصير في لحظات سكون، ونضال يسترق النظر لها محتضنها بروحه.

الخال:

- أهلًا أهلًا بعروستنا.

أم رحمة:

- من كتر حكاوي رحمة عنّك، ومجهودك في الجمعية نفسي أشوفك من فترة.

نضال:

- منا أول ما حسيت كده جيت على طول.

وبعد التطرُّق لعدة مواضيع مختلفة أدلف خالها الحوار لمجراه الحقيقي:

الخال:

- خلّصنا كلامنا في الأخلاق والكفاح والحسب والنسب.. نيجي للأهم بقى.

نضال:

- اتفضل.

الخال:

– رحمة دي بنتنا الكبيرة، وتعليمها عالي دكتورة صيدلانية قد الدنيا فلازم تجيبلها 100 جرام دهب لكن لو فلوسك مش مساعداك عندك مي بنت أخويا أديهالك ب 30 جرام أصلها دبلوم تجارة.

محمد:

– طبعًا خالو بيهزر معاك يا نضال.. زي ما انت عارف خالو تاجر أدوات مترلية فبيتكلم على البنات كأنك جي تشتري تلاجة أو غسالة.

لمحة مرحة من محمد هوَّنت قليلًا مما قاله الخال مازحًا يقصد به الواقع الذي يريد فأكمل بوقار:

الخال:

– طبعًا بهزر معاك.. أنا جبيتك لمجرد إن رحمة موافقة عليك.. أصل ده إعجاز، ثانيًا بقى حاسس من كلامنا إننا معارف قديمة.

نضال:

– الله يعز حضرتك.. شرف كبير ليا.

الخال:

– وأكيد ده السر في إن رحمة مارضتش تعرفنا بيك خالص وقالت لما يجي اتعرفوا بنفسكم، ذكية بنتنا عارفة إننا هنحبك لما نشوفك أكتر.

نضال:

- والله مش عارف أقول لحضرتك إيه؟.. ربنا يديم المعروف.

الخال:

- نسمع المخرجين بيقبضوا ملايين ولا دي إشاعة؟

نضال:

- بنكسب ملايين بس بعد ما نبقى نجوم، ونعدي صعوبات البداية، وبالنسبة لإمكانياتي زي أي شاب، مأجر شقة لأن بداية دخولي الفن بمجهودي الذاتي من غير أي واسطة، فطريقي صعب شويتين في الأول كنت بعافر أحترف مهنتي، والحمد لله عملت اسمي.. بس كانت فرصتي عقد احتكار مع شركة إنتاج عندها مجموعة قنوات.. بيدوني مرتب زي أي موظف مقابل إني أشتهر بس خلاص باقي أقل من سنة، والعقد يخلص وأبقى حر نفسي، ونلعب في الملايين ههههه. عشان كده شغال في مطعم مدير صالة تقديم الطلبات، والحمد لله دخلي يسمحلي أفتح بيت.

الخال:

- الله يفتح عليك.. أحيي كفاحك.

محمد:

- افتكروا قريب هخطب. وكتر خير الشاب لو فكرر يخطب.. ده كيلو الليمون ب 40 جنيه.

ارتسمت بسمة عارضة على وجوه الجميع.. لحظات ضحك، وعادوا لحلبة الحوار ورحمة تتابع في صمت في أقوى لحظات حياتها تعلق قلبها بربها متمنية أن يتم كل شيء بخير..

أكملت أم رحمة:

- طبعًا يا محمد هنعامل نضال زي ما نتمنى أهل عروستك يعاملوك، يا ترى عندك أولاد ولا؟

سؤال عجيب لكن نضال ينتظره من أول اللقاء.. ابتلع ريقه فما فات شيء، وما سيأتي شيء آخر.. ترك عفويته تذيب الملامح الثلجية التي بدت على الجميع فور إطلاق السؤال.. كأن أم رحمة، وخالها يتواريان من الناس من سوء ما تخفي كلماتهما عارًا قديمًا.. بكل ثقة قال نضال:

- عارف سبب سؤال حضرتك وقبل ما تكملي فأنا معنديش أولاد، وما اتجوزتش قبل كده، وقبل ما حضرتك تكملي فأنا فخور بكل تفاصيل رحمة، فخور إنها كانت متجوزة وانفصلت؛ لأن لو مكانتش انفصلت مكانش هيبقالي الحق اتقدملها دلوقتي، تعرفي بعد الشر.. لو كانت علاقة رحمة اللي فاتت لا مؤاخذة في الحرام، وبعدين بقيت كويسة،وبأخلاقها وتدينها اللي هي عليهم دلوقتي.. كنت بردوا جيت اتقدمت.

فعلًا.. إن أردت أن تستنشق عبير الجنة استمع لتجليات عاشق في حضرة جلال معشوقه، ستبُصر ما ظننته محجوبًا، وتجد الواقع أروع ما في الخيال لأنك ستتلمس رؤية الله تعالى دون حُجب وهيم في روح الله التي نفخها في أبينا آدم.. لن تدرك إلا خيرًا مُصفًّى.

صدق كلمات نضال.. أثلج صدر أم رحمة فتراجعت لمسند الأريكة وبهدوء.

أم رحمة:

– الله يكرم أصلك يا ابن الأصول يا أمير.

الخال:

– أهلك عرفوا يربوك، ولسانك يتلف في حرير.. بس إيه أخّرك عن الجواز كده؟ إوعى تقول كنت مستني رحمة.. أو تعمل زي الفنانين، وتقول الفن سرقك هههههه.

نضال:

– أكيد كنت مستني رحمة، وأكيد الفن سارقني.. بس أنا في السن الطبيعي للجواز 26 سنة.

رفض أهل رحمة كان متوقعًا لقيود، وعادات المجتمع وعاهاته.. فنضال يصغر رحمة 4 سنين!لكن قلوب المحبين لا تعترف بدين غير الحب، وترى قيود المجتمع نكات وضعها من يرون الارتباط مجرد علاقة حيوانية.

حين أخبرته أنها "مُطلّقة" في بداية تعارفهما وانجذابهما.. أعطته سببًا لعدم توافقهما، وما يمنع ارتباطهما.. حالها أشبه بزوجة عقيم تقترح على زوجها أن يتزوج بأخرى تنجب له، ومن قلبها لا تريده أن يتزوّج إطلاقًا.. بل تعطيه سببًا لزيادة احتوائها.

بالرغم من كونه شرقيًا يكسوه حمية العروبة مفعم بغيرة الإبل أنثاه قد يراها تصلح للزواج مرة واحدة لفرط الغيرة.. يريد العربي أن يكون الأول، والأخير لأنثاه دائمًا، وبالرغم من كل هذا لم يتحرك مؤشر الغيرة بقلبه.. حتى لم يتخيلها مع زوجها القديم بأي صورة.. لم يقشعر نضال لذلك فقد أحبها، رأى الحب أسمى من تلاحم الأجساد بل تآلف الأرواح.. فأجسادنا زائلة، وأرواحنا خالدة، والحب أبدي يناسبها.

ورأى العذرية أسمى من اختصارها في رقعة من الجسد، فالعذرية هي اللحظة التي تسبق أبدية الحب، ارتوت رحمة أنوثة بمنطق محبوبها.. رأت نفسها في قلبه وردة لن تذبل وشجرة لن يسقط ورقها، بل تزداد نضارة، فتمايلت عليه بكلماتها متدللةً أنه لم يبتدع منطقه تعاطفًا بل استنجادًا بها كونها منهل الحياة لقلبه.. فتظاهرت بالموافقة المضطرة وبتنازل ملكة عن مكانتها قائلة:

– إحنا كبنات بنحب نتجوز رجل أكبر مننا لأن عقول الرجالة أصغر من سنهم بس عشان عقلك كبير شويتين تلاتة هوافق أرتبط بيك وأنت أصغر مني.

انفجرت ضحكًا لم تستطع تقمص أداء كلماتها ثم هامت:

"ربنا بعتك ليا في أنسب وقت وبأنسب حال"

وببساطة غير متكلفة أخذ نضال يعدد لها أمثلة المشاهير الذين تزوجوا عن حب، وكانت الأنثى تكبر الرجل.. أنصتت له محبوبته وقالت: "

– حتى لو مكانش في حد قبلنا عملها.. مش محتاجين أمثلة تشجعنا لأننا مقتنعين بكده بس ده مايمنعش إني متفائلة جدًا إن علاقتنا تشبه أجمل قصة حب بتنور قلبي لأنها الأنجح، وروعة قصص الحب بقيسها بمدى نجاحها واستمراريتها لآخر العمر، وإحنا نشبه أوي قصة الرسول محمد – علية الصلاة والسلام – مع زوجته خديجة – رضي الله عنها - كانت مطلقة وأكبر منه، وقصتهم قمة الرومانسية.

فيا ليت قومي يعلمون.. أن العاهات والتقاليد سجون.. يصلب على قضبانها المحبون، ومن تعايشهم حياة متشاركة يمنعون، وبمقياس تزاوج الحيوانات يقاسون.. يا ليت قومي يعلمون.

***

16

رحل نضال مرفوضًا لا مهزومًا ممنوعًا لا مكسورًا.. تلمع بعينه ابتسامة انتصار أربكت أم رحمةو وخالها أثناء محاولة إقناعه أن المجتمع لن يسمح، لم يكن رفضًا بلا القاطعة بل كان بوعده محاولة التفكير واستشارة الأقارب والمعارف، ولو قدر الله وتم القبول سوف يخبرونه.. غير ذلك فهو مثل ابنهم وكأخ لرحمة وكل شيء نصيب.

مجتمع ينتظر موافقة الناس قبل موافقة الدين والقلب والمنطق!!.. وقبل أن يخرج نضال من مدخل عمارة رحمة أرسل لها رسالة:

"لن أتخلى عنكِ يا من عرفتُ الله بحبك.. لن تمنعنا عاهات المجتمع من الزواج"

وانطلق يترنح في الشارع، وكأنه طفل لأول مرة ترسله أمه لشراء طلباتها فتنفس ثقة وشموخًا بنفسه. ابتهج وخرج من محيط ذكرياته لمجرد إضاءة هاتفه باتصال من أخيه يطمئن على ما حدث معه قائلًا:

"يا عريس طمّني إيه الأخبار؟

فأجابه نضال:

"الحمد لله بمب وقريب فرحنا"

ففرح أخوه قائلًا:

"بص مش هسهر كتير في الشغل.. لما أروّح لازم نعد تحكيلي بالتفصيل"

بدّلت رحمة ملابسها التي استقبلت بها حبيبها، وارتدت ملابس البيت مُطلقةً شعرها.. جلست على الكرسي الذي كان عليه نضال من دقائق، وتملّصت من أي نقاش مع أمها كيلا تُعكر صفو لحظتها فما زالت لا تصدق أن حبيبها دخل بيتها طالبًا يدها مع أنه تم رفضه، لكن قلبها واثقٌ أن طريقهما واحد.

وضعت سماعتي هاتفها في أذنيها، وقد اختلفت ابتسامتها المعتادة حين تنظر داخل صندوقها الخشبي الصغير، وكأن حلمًا تحقق.. تعالى صوتها تتغنى مع فيروز..

سألتك حبيبي لوين رايحين.. خلينا خلينا.. وتسبقنا سنين.. إذا كنا عطول.. اتلاقينا عطول.. ليش بنتلفت خايفين.. ومن مين خايفين ..!!؟

بالفعل يا سيدة الإحساس . ممّن يخاف عاشقًا أخلص عشقه لله ولم يكن دنيئًا يبحث عن شهوة الجسد قبل سكون الروح وخشوع الوصول لخالق المشاعر بالمشاعر!!..

وكان يشغل عقل قلب نضال ورحمة في نفس التوقيت.. لو منعتهم الحياة من الزواج هل سيمنحهما الله أبدية التعايش معًا في الجنة!، ويعوّضهما مرارة عقبات الدنيا لصدق مشاعرهما !! أم لا بد من توثيق علاقتهما في الشهر العقاري بدمغات عليها آلهة الفراعنة وختم النسر..!! بعد موافقة العادات والتقاليد!!

وماذا عن أزواجٍ معهم صكوك زواج الدنيا وقلوبهم متباغضة وأرواحهم متنافرة؟

هل تحسب علاقتهم زواجًا أم زنا شرعي دينًا وقانونًا..!! و هل يكونون رفقاء في الجنة..!!

لكن ثقتهم في عدل الله تعالى كانت أقوى من عقبات العادات والتقاليد، ثقتهم بأن الله ينظر لقلوب عباده أراحت أسألتهما. وتيقنا أنه ما اجتمع قلبان تحابا بصدق.. إلا وكان الله ثالثهما. فتذوب أرواحهما وتهيم في ملكوت الله، ولن يفرقهما الله مهما يتباعدا.

وأرقى درجات الحب حين يختلط بالمعتقد.. فيصير بطهارة الفطرة، وأخطر مراحله حين ينسلخ فيأخذ رواسخ الإيمان بمعظم الأشياء.. أوله.. أنفسنا

***

"الحلة على الباجور عشي عيالك.. أنا رايحة بيت أبويا مش رجعالك"

كلمات يتغنى بها مينا أثناء إعداد سلطة الطحينة، وبين الحين والحين يراقب طهي الأرز، وعبد الله وحسين مشغولان بالشواء على السطح منتظرين نضال الذي أخبرهم باقترابه من البيت.

كاد الجميع ينهون مهماتهم في إعداد الطعام.. دخل نضال السطح بوجه طلق باسم يفتعل الاستنشاق، تفرَّس حسين الفرح في ملامحه فصفق قافزًا.

حسين:

– العب يا قرموط.. مش محتاج أسألك سبع ولا ضبع باين على وشك سبع عنتيل كمان.

نضال:

– لا سبع ولا ضبع.. ده بطريق.

عبد الله:

- حماتك طلعت بطريق!!

مينا:

- يا عريس عامل لك شوية رز بالخلطة .. عجب العجب.

نضال:

- طب نتكلم واحنا بناكل لأن بطني بتصوصو من الجوع.

تهافتت الأيادي في وضع الطعام، وبدأ الأكل على إيقاع طبلة مينا وهو يتغنى:

"يا منجد علّي المرتَبة، واعمل حساب الشقلبة يا منجد عايزين قطن وصاية وعال.. ده عريسنا حبيبنا واسمه نضال".

نضال:

- طب ناولني صباع كفتة متنجد حلو.

حسين:

- إيه أهل عروستك شكلهم بخلا، وسابوك جعان.

عبد الله:

- كفاية قلش، واحكيلنا عملت إيه.

نضال:

- الناس زي الفل وأخوكم يشرف طبعًا.. بس أمها أول ما عرفت إني أصغر من رحمة بأربع سنين كانت هتلطم، وخالها بصّلي بصة أكنه قافشني بسرق.

حسين:

- اترفضت يعني..؟ طب اركن جمبي.

عبد الله:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لعله خير.

مينا:

- أنت عملت اللي عليك.

نضال:

- لسة ماعملتش حاجه

مينا:

- ناقص إيه تعمله؟

نضال:

- ناقص ورك الفرخة اللي قدامك.. ما تجيبه.

مينا:

- خد يا طفس.

حسين:

- الجواز اتعمل للفشل، والفشل اتعمل للجواز، والمحظوظين اللي يلبسوا الفشل في أول خطوة.

عبد الله:

- بلاش جو الإحباط بتاعك يا سحس.

مينا:

- طب مافيش أي أمل إنهم يوافقوا؟

نضال:

- أخوك مش هيستسلم، وهخرب الدنيا.

مينا:

- مالك مبسوط كده، والله مش مصدق إنك اترفضت،

نضال:

- طبعًا مبسوط.. لإن دي بالنسبالي مجرد بداية والتقيل جي ورا.

حسين:

- هتعمل إيه..! هتتقدّم تاني هترفض تاني.. نسيت إني اتقدمت لمي 3 مرات!!..

نضال:

- عشان تحارب العاهات، والتقاليد.. لازم تعمل حاجة مجنونة غير تقليدية.

حسين:

- هتطلّع نار من بؤك !!..

نضال:

- بكره تستوعبوا كلامي.

عبد الله:

- إنت صلّيت استخارة، وتوكّلت على ربنا..فلازم ترضى بنصيبك لعله خير.

مينا:

- وماتنساش جوازكم لو تم هيبقى عليه استفهام كبير، والله أعلم هينجح، ولّا إيه؟

نضال:

- صلاة الاستخارة بالنسبالي طلب العون من ربنا إنه يبصرني الخير، وأنا متأكد الخير كله مع رحمة.. لكن مش مجرد ضربة حظ يا صابت ياخابت عشان صليت استخارة.

عبد الله:

- على الأقل عيد تفكيرك بالذات إنها أكبر منك بكتير، وأي راجل جواه غرور لازم يشبعه عشان يرضى عن ارتباطه، ومهما كنت ديموقراطي، وكل خطوة في حياتكم بقرار مشترك هتيجي في أول خلاف، وتبقى عايز رأيك يمشي، ولو كلامك إتكسر هتحس إنك مش راجل، ولو هي دلوقتي مسلمالك أمورها.. قدام لما تتعوّدوا على بعض إنبهارها بيك هيقل، ويمكن ينعدم، وكل واحد بيشوف التاني بعين العقل، ونبدأ نلاحظ العيوب.. وقتها صعب توافق إن لا مؤاخذة عيل أصغر منها يمشي كلامه عليها .

مينا:

- المشكلة الأكبر مش إنها تشوفك صغير..!! المشكلة إنك هتحاول تثبت لنفسك إنك كبير هتتحول لواحد عايز يفرض رأيه، وبس عشان يبقى كبير قدام نفسه، والكلام ده شفته مع خالي مع أنه أصغر من مراته بسنتين بس.. تصدق من فترة حصل مشكلة مع مراته، وكانت بتحكي لأمي لقيت مراته فنص الكلام بتقول.. "عيب أخوكي إنه بيتصرف تصرفات عيال صغيرة"، الله أعلم لو كان أكبر منها كانت هتقول نفس الكلام بحكم إنه اتصرف تصرف مش عاقل ، ولا هي فعلًا حساه عيل!

أخفى نضال وجهه بكفيه ضاغطًا على جبهته ساحبًا نفسًا مخنوقًا.. ثم مسح بكفيه وجهه في اتجاه شعره، ومشّط يديه مُقلبًا كلامهم في عقله بهدوء ثم أخرج زفيرًا بقوة، وبلع ريقه.

نضال:

– مش عايز ردي يكون مندفع فأثبت إني مش بفكر، والحب عاميني.. فعلًا كلامكم جه فبالي كتير، ولولا إني تأكدت من تفاهمنا، وتقديرنا لبعض ماكنتش هاخد ربع خطوة للارتباط برحمة.

حسين:

– يا بني الواحد بعد العلاقة الحميمية بيجيله حالة زهق، وقرف من جنس الحريم،واللي معاك تقرف تبص لجسمها ولو حضنتها مش هتحس بأي حاجه لإنك طفيت نارك خلاص وقتها بتشوف بس عيوبها.. تقول إزاي كانت عجباني مناخيرها المبرطشة!!.. وإيه كرشها المدلدل ده!!..

عبد الله:

– كلامك صح جدًا بس عن واحدة شاقطها من كباريه.. لو مراتك إستحالة يحصل اللي بتقوله حتى لو مش بتحبها هتلاقي حضنها مليان مشاعر وروحانيات وراحة بال، وده استحالة تحسه مع واحدة مأجرها، ومهما حاولت هيكون مجرد إحساس كدّاب، ومحاولة فاشلة.

حسين:

– ما علينا.. ملخص الحكاية بعد عشر سنين هتبقى أنت في نص التلاتينات، وهي في الأربعينات وهتشتغلّها ممرض، وأحلى هدية تجيبها لها علاج الروماتيزم والسكر، يا بني اتجوز واحده تعيش وتستحمل.

نضال:

– تعيش، وتستحمل..!! على أساس إنها عربية.. هيفضل منطقك قذر عن الجواز طول ما أنت مش مستوعب الجانب العاطفي، ومش معنى إنك إنكسرت في ارتباطك تقوم تكفر بالعلاقة إللي كنت بتتمناها.

حسين:

– بتعايرني ..!!؟

مينا:

– يا حسين بلاش عقلك يصغر.. ما أنت كلامك كتّر خيري إني مستحمله.

نضال:

– حقّك عليا.

حسين:

– ولا يهمك يا شقيق.

عبد الله:

– قرّبنا نعفّن، ولا غسلنا إيدينا، ولا حاجة.

جمَّعوا بقايا الطعام، ووضعوا الأطباق في المطبخ، وصبَّ مينا الشاي.. يشربونه بجوار سور السطح.

نضال:

– ما انكرش كلامكم خلاّني أفكّر تاني، واثبتولي إني صح جدًّا في اختياري.. لو كنت بدوّر على المظهر، وكلام الناس كان زماني مرتبط بنجمة أو موزّة من صواريخ كليباتي.. لكن الارتباط عندي أكبر، وأعمق، ولا عمر قلبي مال لموزّة من اللي بجنّن بيهم الناس لكن رحمة زلزلتني، بجد لقيتها الحل الوحيد لراحتي النفسية، والتفكير السليم، وحتى الملهمة لشغلي.. لمجرد أشوفها أو أسمعها بتفجر طاقة وتفاؤل.. زمان قالوا:"ربنا عرفوه بالعقل".. بس أنا بقول: "ربنا عرفوه بالقلب" عرفته بكل تفاصيل مشاعري.. عرفته برحمة واستحالة أتنازل عنها.

ارتشف من كوب الشاي.. ثم أنزله ببطء وهو يقول متأملًا:

– بجد الموضوع أكبر من الكلام.. أكبر من الوصف.. الكلام فاشل عن وصف المشاعر.

وضع الكوب ظانًّا أنه على السور.. فوضعه خارجه.. سقط في الشارع.. لينتبهوا لصراخ رجل في الشارع يسب، ويلعن من قذفه بكوب ساخن.

***

17

في أحد المصالح الحكومية بمكتب الموظفات المشرفات على إنهاء الخدمة لاقتراب أعمارهنَّ من سن المعاش وبين ثرثراتهن واختلاق أي موضوع للحوار كانت أم رحمة بصحبة أم هند.

أم هند:

– بس يا ستي فضلنا نلف لحد ما وسطي اتقطم.. فين وفين لما لقينا طقم السكاكين الصيني اللي مرسوم عليه البتاع اللي بيقولوا عليها تويتي.

أم رحمة:

– هند بنتك طول عمرها متعبه.

أم هند:

– لازم تلف محلات الدنيا قبل ما تشتري.

أم رحمة:

– ربنا يتمّملها على خير.

أم هند:

– بالحق.. أخبار المخرج اللي متقدم لرحمة إيه؟

أم رحمة:

– تفّي من بؤك.. بلا مخرج بلا طيار ده طلع أصغر منها بأربع سنين.. آل إيه بيحبها.. حكم.

(ضربت صدرها بيدها)..

أم هند:

– يا لاااهوي.. عايز الناس تقول من همه خدها قد أمه !!..

أم رحمة:

– وكمان ماحيلتهوش خمسين جنيه على بعض.. يظهر مرواحها التِرب كتير لحس نافوخها.

أم هند:

– ودّيها لشيخ يمكن اتلبست.

وفي دار المسنين كانت رحمة تجلس خلف الحاجة سناء على فِراشها تُمشِّط شعرها بالسيشوار.

الحاجة سناء:

- لو فضلتي متمسكة برأيك بعد فترة هيوافقوا.

رحمة:

- يعني في أمل؟

سناء:

- طبعًا في أمل طالما متأكدين من مشاعركم ومتفاهمين مع بعض.. وإنتي بالأخص تكوني حساه راجلك وشايفة عقله كبير.. مش حساه صغنون ماهوش خبرة في الحياة .

رحمة:

- أصلًا بحسه أكبر مني بكتير.. بحسني طفلة معاه وكتير بحسني أمه.

الحاجة سناء:

- هتلخبطيني.. بتحسي نفسك طفلة معاه ولا أمه ..؟

رحمة:

- والله بحس الاتنين في نفس اللحظة.

الحاجة سناء:

– هو ده الأمان.. هو ده الحب.. الواحدة مننا مهما كانت صغيرة بتبقى أم أول ما تحب وابنها البكري الحقيقي هو حبيبها.. وبردوا الواحدة مننا مهما كبرت أول ما حبيبها يدلعها وتشوف حبه في عيونه بتتحول طفلة وطفلة أوي أوي.

أثناء خروج أم رحمة من العمل وجدت محمد أمام الباب.. مفاجأة غير متوقعة اصطحبها بسيارته لجزيرة وسط النيل.. دخلا وفي عين أم رحمة ألف معنى ويومض بعقلها مشاهد متفرقة لقصة عميقة لقلبها.. جلسا على حافة النيل وطلبا الغداء.

محمد:

– من ساعة ما نضال جالنا البيت وإنتِ مش عجباني، ومتأكد مش هتفرفشي غير هنا.

أم رحمة:

– ربنا يباركلي فيك، ويعقل أختك قبل ما تموّتني.

تناولا الغداء، وعقل أم رحمة شارد في المكان الذي عاشت فيه قصة حبها مع زوجها منذ كانا زميلين، ولكم حكت لأولادها عن حبها لأبيهم وقبل وفاته كانوا يذهبون جميعًا للتنزه بالجزيرة، وأثناء المشي على حافة النيل.

محمد:

– متأكد إنك لما كنتي في سننا، وعايشه أحلى قصة حب.. ماكنتيش هتسمحي لأي حاجة تبعدك عن بابا الله يرحمه.

أم رحمة:

– لو جايبني تعكّر مزاجي، وتحاول تقنعني أوافق على نضال يبقى نروّح أحسن.

محمد:

– أمي.. عشان خاطري ماتتعصبيش وتعالي نفكر بهدوء.. طالما هم متفاهمين، وبيحبوا بعض يبقى حرام نحرمهم يكملوا حياتهم سوا.

أم رحمة:

– مش معنى إني كل يوم بتمنى أشوفها متجوّزة أوافقلها بأي حد، وأسيب الناس تاكل وشي.

محمد:

– خدنا إيه من كلام الناس لما جوّزناها واحد بمقياس الناس كويس جدًّا.. وظيفة محترمة، وعربية وفلوس لكن عمره ما حبها وكان محسسها إنه اشتراها بفلوسه وخلاها قربت تنتحر .

أم رحمة:

– حمأة الشباب وخداك.. بكره تكبر وتفهم العرف والعادات ليهم قيود أقوى من الدين والمنطق والحب.

محمد:

ماخدناش من كلام الناس غير الاهتمام بالمظاهر، ونسينا راحة البال والمشاعر.

18

وعن أول لقاء بعدما تواعدا أن يكملا حياهما معًا.. أن يتشاركا نفس الحياة.. يتوقف الزمان.. يتلاشى المكان.. يتبخر الإدراك، وتبقى السعادة هي الحقيقة الوحيدة.. هي الحقيقة المؤكدة دون الحاجة للسعي في دروب البلاغة وإنهاك الأقلام في البحث عن وصف لتلك اللحظة واستعارة تشبيهات خيالية.. كل ما في الأمر، وأجمل ما يقال عن تلك اللحظة وأكمله..

أنها "أول لقاء.. بعدما تواعدا أن يكملا حياهما معًا".. أقبلت عليه تمشي على استحياء تزف كل معاني الخير والنقاء بوجه حُمرته تفتن أبصار المارة دون أن تشعر.. في رحلة إسرائها ومعراجها بابتسامة محبوبها المتجلية بنور على نور.. لم يدركا أن خطواهما توقفت ويقفان

وجه لوجه إلا ويداهما متلاحمتان بالسلام لتتوحد حرارتهما جسديًا ولوعة..

نضال الذي بحث عن الله كثيرًا، ولم يتخيل أن الطريق إليه بدايته ملامسة يدها.. في تلك الرعشة الخفيفة لشعور مختلط من التوتر وكثيرًا من الطمأنينة، وذلك الدفء المتسرب في شرايين الجسد منطلق من يديهما حتى يصل قلبيهما بردًا وسلامًا.. فسبحان خالق المشاعر.. الخالق الأعظم!

كيف لعظمته أن تُوصف؟! كيف خلق الاشتياق؟ كيف خلق انتفاض القلب حين يرى حبيبه فتُحلّق الروح في الآفاق..

وفي المكان المفضل لنضال.. بين أسوار القاهرة القديمة.. في شارع المعز لدين الله الفاطمي بدأ السير في الأرض المقدسة المبارك حولها.. مع أنها ليست أرضًا لمعجزة دينية لكن المكان يصبح مقدسًا إذا التقيا.. تشابكت أصابعهما.. فأدركا أهم شيء خلق الله لأجله الأصابع.. لتتشابك أيدي المحبين.

توغلا في عبق المكان بين المباني القديمة حتى وصلا أزقة خان الخليلي، واختلطت صور المباني مع عبير البخور وتفاصيل التحف وسكينة أذان الجامع الأزهر مع روائح العطارين.. كانت كلماتهما معدودة، لم يريدا مناقشة ما سيواجهانه، وكيف سيواجهانه.. كل ما أرادا هو أن يعيشا لحظتهما.. فقط.. أن يعيشا.

ساحا روحان خفيفان فلم يتضوَّر جوعًا مع أنه ترك بطنه خاويًا منذ الليل وقت حددا ميعاد اللقاء قد طلب منها أن تحضر له طعامًا في حقيبتها.. ليس بهدف اختبار حرفتها في الطهي.. إنما أراد أن يستمد طاقته الجسدية من صنيع يدها.. لم يكتفِ أن تمده بالطاقة الروحية.. أكلا في ساحة جامع الحاكم بأمر الله بين الحمام المتطاير في الساحة يلتقط الحبوب من الأرض، ثم فتحت صندوق الهدايا الذي أتى به لها فوجدت لعبة طفولته سيارة قديمة،وكلاكيت،والظرف الفارغ للرصاصة التي حدثها عنها كثيرًا وقت خدمته في الجيش حيث اقتنص بها إرهابيًّا كان يرتدي حزامًا ناسفًا ويهدد بتفجر الكمين إذا لم يقم الجنود بتسليم أسلحتهم لمرافقيه.

ففهمت من هديته ما أراد وأكثر.. من إهدائها ذكريات طفولته، وأول كلاكيت كُتب عليه اسمه في بداية مستقبله، والرصاصة التي حافظت على حياته، وكارت كُتب عليه:

"عرفتُ اللهَ.. بُحبِّك"

أهداها الماضي والمستقبل، وبارود حياته، وعقيدته.. فأخرجت له من حقيبتها صندوقها الخشبي الصغير.. فتحته ليجد به منديلًا.. فكر لحظة ثم قال:

– إوعي يكون المنديل اللي اديتهولك في أول مره أشوفك.

هزت رأسها بنعم فأفقدته ما تبقّى من عقله، لم تُهدِه شيئًا ماديًّا.. فقط.. أهدته صفاء روحه وأرته صكَّ الوفاء.. ثم أعادت صندوقها إلى حقيبتها.. لتنشد روحه وتترن ..

جلسنا .. فزارت نساء الدُنى عقلي .. وحسنهن

حاول لفت أنظاري .. وقبلت أقدامي .. مفاتنهن

وكأني راهب ساجد بمحرابه وقلبه يئن

صليت في هواكِ دهرًا .. دون شرك لأن

الصلاة لغير الله شرك ..، لكن

صلاتي مدح لصنع الخالق .. كي لا أُجن

فسجدت مرارًا كل سجدة قرنًا

وأن لحظة عندي كألف قرن مما تعدين

ولم أتذكر إلا قوله " تبارك الله أحسن الخالقين"

يامن عرفت الله بحبكِ .. وحاربت الملحدين

قائلًا: إن كانت من صنع الطبيعة

فللطبيعة إله عظيم

خلق من العدم كونًا وبشرًا

إبداعه لا يراه إلا خشوع المصلين

أقيمت الصلاة.. دخلا صفوف المصلين ليأخذا ميثاقًا مع الله بحياة مشاركتها أبدي..

انتهى اليوم..

وأمام صانع فنان لحلوى غزل البنات على شكل وردة كبيرة متداخلة الألوان.. تجذب دلال الإناث، اشترى لها واحدة ليحولها طفلة تشغلها الحلوى عن رؤية الطريق.

***

19

عاد نضال إلى بيته.. تعثرت خطاه في بقايا حطام إصيص زهوره المفضلة اشتعل غضبًا.. ألقى مفاتيحه، أطلق حنجرته.. فخرج أبوه من غرفته خائفًا يخفي خلف ظهره بعض الزهور، وعلى وجهه ملامح طفل شيبه الزمن يقسم بالله بانفعالات طفولية بصوت أجش:

– والله اتكسرت وحدها.

احتضن أباه.. أطال ضمَّه.. أعطاه حلوى ثم قاما يجمعان رفات الإصيص ليكررا ما حدث في طفولته لكن الاختلاف لم يعاقب أباه.. أجلسه في الشرفة، وأحضر الشاي .

نضال:

– لو عايز أديك الشاي قول أنا مين؟

الأب:

- رجل طيب وابن طيبين.. هات الشاي بقى.

نضال:

- قول اسمي الأول.. منا قولتهوللك امبارح.

الأب:

- اسمك هو نفس الاسم اللي قولتهولي امبارح أكيد ما اتغيرش.. هات بقى الشاي يا طيب.

نضال:

- افتكر بس أنا مين؟

الأب:

- الملامين جامد ومتين.

نضال:

- اتفضل شايك أسهل.. أنا نضال ابنك يا حاج.

الأب:

- وكبرت من ورايا كده..؟ مش خايف أضربك يا ولد.؟

نضال:

– منا جاي استأذنك أهو يا بابا.

الأب:

– يااااه.. انت مدّيني كوباية فاضية، وكوبايتك مليانه.. هات بؤ.

نضال:

– اتفضل كوبايتي كلها يا حاجوج.

الأب:

– اسمك إيه يا طيب يا بن الطيبين؟

نضال:

– أنا ابنك نضال.

الأب:

– طب منا عارف.

نضال:

– طول عمرك دماغك حاضرة.

الأب:

– ماتقول لمراتك تجيبلنا حاجة ناكولها.

نضال:

- لسه ما اتجوزتش .. ادعيلي.

الأب:

- يبقى بتحب والجو مشعوط.

نضال:

- عشان كده بقولك ادعيلي ربنا يسهلنا ونتجوز.

الأب:

- قبل ما ادعيلك هقولك.. مراة فلان مياخدهاش علان.. يعني لو ليك نصيب هتاخدها.. المهم تعمل اللي عليك وماتقولش نصيبي مش هياخده غيري.. لأنك لو ما حاربتش عشانها غيرك مش هياخدها، وانت كمان مش هتاخدها.. فربنا يجعلكم من نصيب بعض.

نضال:

- الله على كلامك الله.

الأب:

- قوم إتلحلح اكتبلها مرسال وابعته مع البوسطجي.. بدل مهي نسيتك من كتر رغيك معايا.

نضال:

- مرسال.. يعني جواب.. الله الله.. تصدق فكرة تستاهل بوسة عليها.

الأب:

- لا تستاهل كوباية شاي .. ده بقالي يومين ماشربتش.

نضال:

- ماشي هعملك.

الأب:

- تسلم يا طيب .. هو اسمك إيه؟

***

20

في منتصف السطر.. كتب..

"إلى قِبلة الحب.. إلى رحمة"

وأكمل من أول السطر التالي:

"قلبت قلبي في السماء فولاني الله قِبلة أرضاها أولّي لها قلبي أينما كنت وهبني الله أنتِ يا رحمة.. أما بعد / الآن أرتب أموري وأسطر جدول مواعيدي بدقة كيلا أحتاج أي اتصال من العمل..كي أتخلى عن التكنولوجيا فترة ما، وعندما يصلك جوابي ستكون وسيلة الاتصال الوحيدة هي ساعي البريد.. لستُ قاسيًا في تجربتي، ولا أسطوريًا في حبي، ولا أحاول العودة لعصور الحب الجاهلي.. فقط أردتُ أن يختلي كلٌّ منا بقلبه بعيدًا عن تأثير سرعة تواصل التكنولوجيا، أردت أن يثبت كلٌّ منا لقلبه أنه يريد

الآخر بيقين، وليس لأننا تعوّدنا الوجود اللحظي عن طريق هاتف أو مواقع وبرامج التواصل الاجتماعي مهما تبعد بنا المسافات.. الأيام القادمة سأريك جنونًا يمهد زواجنا برضا أسرتك.. أتمنى أن يؤمنوا بأهم قواعد الإنسانية" ليس للمتحابين إلا الزواج" سيؤمنون أن الزواج الناجح.. مجرد حب، والحب مجرد عبادة وأهم شروط العبادة "الطهارة والنية".. لا تعقيد في العبادة لا تعقيد في الوصول إلى الله تعالى ، والحب هو الطريق الوحيد إلى الله.. كل شيء خُلقَ بحبٍّ وللحب.. فأصل الحب الانجذاب، والانجذاب سِرُّ الكون وإبداع الخالق الأعظم.. انجذب الأوكجسين للهيدروجين فكونا ماءً، ووضعت قوة الجاذبية في الأرض لتستقرَّ الحياة، وانجذب القمر للأرض، والكواكب للشمس وداروا بقوة الانجذاب مكونين المجرات والكون الواسع.. بأمر الله.. فقط.. بالانجذاب، فكيف نرى كل الآيات حولنا سهلة بسيطة ثم نعقد انجذاب المحبين ليكونوا أسرة؟ أتمنى أن تقنعي أسرتك ومعارفك.. كيف نعيش بالفطرة.. كيف نكون كما خلقنا الله دون تعقيد أو عاهات مجتمعية ."

أنا الموقع أدناه

نضال عبد الحق

***

بعد أسبوع وضع ساعي البريد في صندوق بريد نضال..

"إلى الوطن الحقيقي والسكن .. إليك يا نضال ..

صديقي الصدوق لستُ مثلك أملك سحر البيان.. ربما تكون كلماتي غير مرتبة فلينسقها قلبك ..

أفتقدك.. أتلمس صوتك في كل شيء.. أعدتُ قراءة جوابك والمحادثات الإلكترونية بيننا عشرات المرات، وشاهدت الفيديو أكثر وأكثر.. كل الأطفال حولي أنت ..

توحدت أسماء الأدوية في الصيدلية جميعها في عيني اسمك..

أثق فيما خلوت مع نفسك لأجلنا، وانتظرك، فقد آمنت بك وآمنت لك".

***

مر أسبوع آخر.. طرق أحد سعاة البريد شقة رحمة بأنف كبير وحاجبين غليظين وشنب رفيع ونظارة مستديرة.. فتحت أم رحمة فأخرج من بين الجوابات مظروفًا، وسألها بصوتٍ مختنق من أنفه "حضرتك الأستاذة رحمة".. أجابته:

– أنا والدها.. خير.

أخبرها أنه يحمل جوابًا من شركة أدوية إلى رحمة ويجب أن تستلمه بنفسها بعد إبراز بطاقتها الشخصية..

نادت رحمة.. لمجرد رؤيتها ساعي البريد، توتَّرت فأكيد يحمل خطابًا من نضال.. أخرجت بطاقتها وأمها تتابع، أعطاها الساعي المظروف وطلب منها فتحه وتسليمه إيصالًا يؤكد الاستلام داخله.. ازداد توترها، أمها تتابع.. فتحته وجدت نشرات أدوية.. اطمأنَّت وقّعت الإيصال، وجلست أمها أمام التلفاز، أعطاها الساعي كارتًا مكتوبًا عليه:

"الآن بدأ جنوني بك يا من عرفت الله بحبك"

رفعت عينيها عن الكارت إليه وجدته يخلع قناعًا مطاطيًّا مصنوعًا للخُدع السينمائية.. إنه نضال.. غمز بعينه، وانصرف.. لم تستوعب ما حدث، وتحنّطت لحظات.

***

21

عاد التواصُل بالهاتف لضرورة تنسيق الأحداث.. رتّبت رحمة موعدًا لغداء خالها.. أثناء الطعام طُرق الباب، قام محمد يفتح ليجد نضال في الميعاد المحدد معه سرًّا دخل عليهم بوجه طلق وصوت مبهج قائلًا:

– السلام عليكم.. إزيك يا حماتي، وإزيك يا خال مراتي جاي أسلم بس والله منتوا قايمين من على الأكل.. حبيت أفكركم إنكم مأخرين فرحنا فوتكم بعافية.

وانصرف ولم يدع فرصة لأم رحمة وخالها بكلمة .

ضحك محمد، وقفزت رحمة.. فرشّت أمها عليها كوب الماء.. لن تستطيع الهرب من تطفل عاشق عشق بصدق، ووهب حياته لجنون عشقه.. كانت مجرد بداية، وصار لنضال فقرة أسبوعية وأحيانًا يومية.. يطرق الباب متنكرًا في شخصيات مختلفة تارة صعيدي، وتارة يأخذ

الطلبات من عامل توصيل الطلبات، ويرتدي ملابس المطعم ويطرق الباب.. حتى تنكّر في عامل النظافة، وجمع قمامة العمارة بالكامل في صباح أحد الأيام.. أصبح يطارد أم رحمة، وخالها بشكل غير متوقع، ورغم استفزازه فإن فكاهيته وتنكره كانا مُسلّيين، وأوقات ظهوره في أماكن مختلفة لهم كانت مثيرة للضحك قبل الغضب.. فخرج لها يومًا من صندوق القمامة الموضوع أمام مدخل عملها فأفزعها، وظلت تضربه بحقيبتها.

وذات يوم كانت تحتاج أمها بعض المفارش.. بعدها بيومين مر أحد الباعة الصينيين حاملًا حقيبة البضاعة، نادته أم رحمة من الشرفة.. صعد، أخرج بضاعته.. اشترت بعض المفارش، وأدوات منزلية، والصيني لا يتكلم العربية.. يشير بيده مُصدرًا أصواتًا.. كتب لها سعر المشتريات على شاشة الهاتف.. ثم خلع القناع .. قائلًا:

– اعتبريها هدية يا حماتي

وانصرف نضال راكضًا.

كيف يرفض الأهل مجنونًا بابنتهم لتلك الدرجة.. فقط.. لأنه يصغرها !!.. كيف نستسلم للعاهات والتقاليد ونقتل بها طهارة الفطرة فينا!!..

كفى العاشقين نعيمًا وعذابًا، ومنحة وابتلاءً بعشقهم.. اتركوهم في عالمهم الخاص ، وارحموا عزيز قومٍ .. أحبَّ .

وذات يوم.. ذهبت رحمة الصيدلية، وجدت مع زميلتها سارة جوابًا تركه أحد سعاة البريد لها فتحته.. وجدت مكتوبًا فيه..

"أتعرفين عاطفة البسطاء التلقائية لنبيهم ، ورسوخه بقلوب عقولهم باسم "الحبيب!"

وصل الحال بهم حين صعد الخطيب المنبر قائلًا:

"لو بنتك رايحة الجامعة إتأكد إنها رايحة تدرس.. بدل ما تكون رايحة تقابل الحبيب".

فصاحت الجموع "صلي الله وسلم على الحبيب"

حبيبتي لو أدركتِ فلسفة الموقف.. ستعذرين تنكري في ملابس عامل نظافة، وحملي جوال القمامة لأجمع مخلفات شارعكم.. لعلي أراك ..

لا أخفيك سرًّا رائحة القمامة ليست سيئة بالقدر الذي نبالغ فيه..

أو ربما مشاعري فاحت عليها عطور الجنة ونقاء الروح"

أنا الموقع أدناه / عامل النظافة الجديد لشارعكم هاهاهاهاه

لن أُخبرك أنني نضال .. لن أخبرك يا مجنناني.

***

22

بعد عمل شاق لتصوير أحد البرامج، وعمل أشق في تتبُّع أم رحمة متخفيًا في ملابس بائع تمر هندي مصهللًا الدنيا بألحان صاجاته انفرد بنفسه مستأجرًا مركبًا في النيل لا يوجد بها غير السائق سابحين في ظلام النيل المتخلل بألوان إضاءات المراكب الراسية والمطاعم البعيدة على ضفاضه ..

نام نضال في المقدمة متأملًا النجوم.. مر وقت طويل وجسده منتشٍ بهزة المركب.. وضع يده في جيبه ليخرج موبايله الذي تركه على الوضع الصامت دون اهتزاز ليجد اسم حبيبته يضيء شاشته.

فانتفض جالسًا ليزيد اهتزاز المركب..

رحمة:

– إنتِ قاعد جوّه الموبايل ولا إيه..ده ماحقتش أرن ربع رنة حتى!!

نضال:

– صدق أو لا تصدق.. موبايلي صامت، وفجأه لقيتني بطلّعه من جيبي حسّيتك بتتصلي.

رحمة:

– أكيد صدفة، وتصادف.. ماتحاولش تقنعني إنك من كتر جنانك بيا بتحسني أوي كده هههههه.

نضال:

– مش محتاج أقنع واحدة جناني بيها مجرد رد فعل لطيبة قلبها.

رحمة:

– وله.. هتنسيني متصلة ليه.

نضال:

– أكيد متصلة تقولي بحبك أوي، ووحشتني جدًّا ونفسي أشوفك، وأنا هقولك مش فاضي.

رحمة:

– هو أنا قولتلك قبل كده إنك رخم وسقيل أوي!!

نضال:

- أبدًا .. بتاتًا .. إطلاقًا.

رحمة:

- رررررخم، وأل إيه من شويه إعلان منتجعات سما شغال.. ماما فضلت مركزة معاه.

وراحت شدّاني من شعري تقولي:

- ده صوت الموكوس بتاعك.

والله فضلت أضحك لحد ما شرقت.

نضال:

- سلامتك من الشرقة يا هارتي .. بس جاية في أكتر إعلان صوتي فيه نصاب.

رحمة:

- نصاب في عينك.. ما تقولش علي قلب قلبي كده.

نضال:

- لا.. صديقك الصدوق وبس.

رحمة:

- رخم رخم .. بمناسبة النصب إيه أكتر إعلان نصبت علينا بيه؟

نضال:

– مثلًا مثلًا.. الصور إللي على علب السجاير.

رحمة:

– إزاي دي صور تحذير من أضرار التدخين!!..

نضال:

– خلّينا المدخن متعايش مع اللي خايف منه فبقى عادي لو تقوليله هيجيلك سرطان رئة، وعندك بردوا شركات السجاير بتدفع ملايين لأفلام السينما عشان البطل يدخن كتير فتتركز فكرة التدخين في عقل اللا وعي للمشاهد.. خصوصًا وقت التوتر والخوف وحتى الفرح.

رحمة:

– فعلًا نصابين.

وفي كل مرة يظهر نضال وفور انصرافه تعيد الأم كلماتها لرحمة:

– يا بنتي الواد أصغر منك يعني هتكبري قبليه ويتجوّز عليكي، وفي أول مشكلة هيعايرك إنه اتجوزك مطلقة، اتجوزي حد من توبك يكون مطلق أو مراته ميتة وأكبر منك.. عشان تعمّروا بيتكم.

وكان رد رحمة مكررًا بالحرف:

- هو لازم يعني اتجوّز واحد ليه تجربة فشلت عشان تطّمني! وبعدين نسيتي إن الزفت اللي اتجوزته كان اختياركم! وقسوته بفلوسه ومظهره وفي الآخر كرّهني فنفسي، والفترة اللي قضيتها معاه كانت أمنيتي الوحيدة أشوف فعيونه نظرة حب.. أو أحس إني بني آدمة، وأهو حظي لقيت كل اللي بتمناه وأكتر في واحد فاهمني.. ده التفاهم اللي بيني وبينه أتمنى يبقى فكل البيوت وقتها الناس هتعيش سعيدة بجد، وعقله يوزن بلد والعمر مجرد أرقام، وياما ناس شايبة وعقولها فستك ولو بعمل حاجه حرام ومش في شرع ربنا قوليلي.. ده حتى أول جواز للنبي كان من واحدة أكبر منه ومطلقة هتقوليلي عادات وتقاليد.. هقولك ياريت مخدنا بيهم كانوا سبب موافقتكم على الزفت الأولاني.

***

23

ولأن لكل شيء نهاية.. بعد فترة انقطع نضال عن الظهور.. يأس، مل.. استُنفدت جميع حيله، افتقده الجميع حتى أم رحمة كانت تعوّدت ظهوره المفاجيء.. لكن انتهى جنون المحبين،وفي يوم خرجت رحمة للعمل فأدركها شر القدر.. صدمتها سيارة مُسرعة.. تم نقلها إلى المستشفى، وجاءت سارة لبيتها تخبر أهلها فهرولوا للمستشفى.. في غرفة العناية المركزة تحت خراطيم متصلة بمحاليل وأجهزة طبية تحيط برحمة والموت قريب، وجهها ملوث بكدمات وجروح.. أسرتها تنتظرها على باب الغرفة.. الدخول ممنوع.. غيبوبة استمرت أيامًا ثقيلة بطيئة علي أهلها، وبينما هم جالسون وقت الزيارة دخل نضال بوجه شاحب صامت كالموت.. مميت كالصمت.

تغلف عينه طبقة رقيقة من الدموع تأبى أن تسقط لتحرق عينه وتعذبه.. عرفوا الحب في حزنه مع إنه كان أوضح في بهجته، وأقسى ما في الحب أنه يبكينا قدر ما أضحكنا حين يُصاب محبنا بمكروه.. لم يعد للدنيا إلا عندما بدأت إفاقة رحمة، ولكن أصابها شللٌ نصفي.. قدماها مرتخيتان بلا أعصاب تحركها لا تقوى على تحريك نصفها السُّفلى.. عاد عقلها مُدركًا، وجسدها معاق، أخبرهم الطبيب أنها ستكمل حياتها على كرسي متحرك، وبالاستعانة بالعلاج الطبيعي ربما تستطيع تحريك أصابعها.

عادت بيتها عالة على أمها وأخيها وعبئًا ومصدر حزن بوجه صنم لا يتبسم.. خدمتها ثقيلة فكل شيء تحتاج من يحملها إليه حتى أدق تفاصيل حياتها الشخصية.

فشلت أمها جاهدةً في إسعادها.. مر أكثر من شهر، ونضال لم يعد.. تبخّر، واختفى.. لا يهاتفهم، ولا يرد على اتصالات رحمة، وأمها.

رن هاتفه من رقم غريب ليجد المتصل أم رحمة طلبت منه أن يصنع معروفًا ويزورهم ربما يخفف عمّن كانت محبوبته يومًا.. لبى طلبها بعد إلحاح كأنه يُساق للإعدام..

أشرقت رحمة لمجرد دخول من أحبها يومًا.. ضحكت فكاد وجهها يتشقق لنسيانه تحريك شفتيها، لكن من الواضح نضال لم يعد يفكر بالزواج ممّن جُنَّ بها يومًا.. هكذا أدرك الجميع .

يااااه.. كيف للحب أن يُمحى لمجرد إصابة الجسد! كيف تناسى شغفه وجنونه بمحبوبته!! أين كلامه عن تآلف الأرواح وأن أجسادنا لا تعني شيئًا في ملكوت الحب! وأن أجسادنا زائلة والحب أبدي يناسبها!

نظرات الشفقة تملأ عينيه لكنه ما عاد يشتهي حبيبته.. انتهت الزيارة أوصلته أم رحمة لباب الشقة، تلك المرأة المتسلطة انطفأ بريق الديكتاتورية في عينيها، وصرامة صوتها انتكست رجاءً.. تسأله:

– لسه بتحب رحمة وعايز تتجوزها؟، ولو هتتجوز عليها.. ده حقك.

***

24

في أرقى فنادق القاهرة، وفي أفخم قاعات أفراحه.. في منتصف النهار دخل نضال يدفع كرسيًّا متحركًا حولته رحمة لعرش ملكة بفستانها الأبيض الملائكي على إيقاع موسيقى زفة استقبال العروسين.. المدعوون يتأمّلونهما بمنظرهما المؤثر، وبعد أن وصل العروسان أمام كرسيهما.. توقف نضال على الأرض المضيئة أمسك الميكروفون.

نضال:

– إحم إحم.. مش عارف أبدأ منين، وازاي بس أحب أوضح حاجة مهمة للناس اللي عنيهم هتبظ على البوفيه بلاش فضايح إحنا على الهوا في برنامج (العاصمة).. إحنا مش في فرح عادي، من يومين لما كتبت كتابي ماكنتش مستوعب، والنهاردة جاي أعرّف العالم بنفسي..

أنا تقريبًا أكتر شاب إتقدم لعروسته 35 مرة باستثناء آخر مرة اللي اتقبلت فيها. وعشان الناس اللي بتتفرج في البيوت تفهم أكتر نوريكم الفيديو ده.

يُعرض فيديو على شاشات القاعة تم تصويره بكامرتي نضال الموجودتين في القلم، والساعة بالإضافة لكاميرا مخفية فوق باب شقة رحمة وضعها نضال في يوم رتبت رحمة خلو البيت من الجميع..

يعرض جميع مرات طرق نضال بابها.. انبهار المدعوين سرعان ما تحوّل ضحك لمواقف تنكُّر نضال، وطريقة كلامه لمجرد فتح الباب بكلمته المعهودة:

– جاي أخطب بنتكم يا ناس يا فل.. انجزونا بقى كفاية تأخير همل.

لقطات سريعة ثم أكمل:

– نسبيًّا مش بقول أسرة حبيبتي رفضوني.. ده المجتمع اللي كان بيرفض تحت بند العاهات، والتقاليد لأن عروستي أكبر مني بأربع سنين، وكانت متجوزة قبلي وأنا لأ.. المجتمع رفض بسبب شكليات، ونسى قصة حب رهيبة بنا، وإني قادر أفتح بيت.. طيب بعد رفضي تفتكروا إتوافق ليه على جوازنا..!!.. تعالوا نشوف.

يُعرض فيديو في طرقة طويلة داخل المستشفى.. الطاقم الطبي يدفعون رحمة على سرير الإسعاف، وهي غارقة في دمائها.. لقطات

سريعة في العناية المركزة تحت الأجهزة، والمحاليل.. أسرتها تقف على بابها.. يختم بلقطة خروج رحمة من المستشفى يدفعها أخوها على الكرسي المتحرك.

نضال:

- بعد كمية الرفض، وما ننساش إني اتحدفت في مرة بشبب حماتي.. فجأة الدنيا اتحوّلت، واترجوني أتجوز حبيبتي بأي إمكانيات.. جهّزنا شقتنا في إسبوعين شوية بياض، وعفش رخيص على قد فلوسنا، وكان في عرض من حماتي.. من حقي أتجوّز على رحمة.

نظر نضال لرحمة واستدار حولها.

نضال:

- ليه أهلك وافقوا أتجوزك بقى؟

رحمة:

- لأني بقيت معاقة.

الناس تتابع في ذهول وقع الكمات قاسٍ وغريب كأن الزفاف قُلب مستشفى للمجانين.

نضال:

- بشهّدكم يوم فرحي.. إننا مجتمع معاق ذهنيًا.. مافيهوش إنسانية.. بقى رافضين نكمّل حياتنا عشان عادات مانعرفش مين حطها! ووافقتوا لما بتقييمكم حبيبتي بقيت رخيصة !!.. هي تبقى رخيصة في حالة واحدة لو قيمة الإنسان جسمه زي الحيوانات شوفتو عملتوا فينا إيه.. كلكم شاركتم في اللي احنا فيه.. المجتمع، وعاهاته هدفهم تصعيب الحياة على الناس مع إن شرط الجواز الحب وبس، ودينيًا ليس للمتحابين إلا الزواج، ومن جاءكم ترضون دينه، وخلقه فزوّجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وبعد كل ده نيجي نسأل ليه التحرش بيزيد، وحالات الاغتصاب.. لأن الشباب مكبوت محروم من ممارسة إنسانيته.. زمان سهّلوا الحلال فبقى الحرام صعب، والنهاردة صعّبتوا الحلال فبقى الحرام سهل.. فوقوا مش لازم تحصل حادثة عشان تؤمنوا بحبنا.. أنا مش بفضح نفسي على الهوا، أنا بعرّي المجتمع المعوّق.. اللي أهم حاجة عنده المظاهر والمطالب التقليدية وفي ستين داهية المشاعر.

فجأة.. تقف رحمة.. الناس ذّهلت أضعافًا مضاعفة.. وقفت أم رحمة، وخالها بصرع، وشلة نضال .

رحمة:

- عندك حق في كل كلمة يا قلب قلبي.. مش لازم تحصل مصيبة عشان المجتمع يتساهل وياريت كل اتنين حبوا بعض.. يتمسّكوا بحبهم، ويعملوا المستحيل عشان يكملوا حياتهم زينا.

يُعرض فيديو رحمة تخرج من باب العمارة تمشي حتى منعطف الطريق تدخل عربة كبيرة مجهزة للتصوير السينمائي.. ينتظرها بالداخل فريق مكياج..قاموا بتشويه وجهها بالكدمات،ووضعوا الدماء على ملابسها.

رحمة:

- مش محتاجين نقول غير شكرًا للمستشفى، والفريق الطبي اللي اقتنعوا بقصتنا، وساعدوا جنانا.

(يقف الفريق الطبي فيحييانه).

وشكرًا لكل فريق العمل اللي لولاهم ماكناش وصّلنا قضيتنا للعالم، وأهم حاجة فريق المكياج اللي كل شوية كانوا يخترعوا شخصية لحبيبي، وشكرًا لرفض أمي.. لأن لولاه كان زمان جوازنا تقليدي جدًّااا من غير أي تأثير ولا جنون، وشكرًا للفندق إنه استضافنا في أكبر وأغلى قاعاته ببلاش.. عشان نقدم حلقتنا النهاردة.

نضال:

- لا الفندق ببلاش تشكريهم فرحنا يعتبر إعلان ببلاش هههههههه.. بجد شكرًا لكم، لو هشكر فعلًا.. هشكر القدر اللي جمع أمي وأبوكي في ساحة مقابر واحدة لأنهم جمعونا، وقبل ما تقلب بصعبانيات وشحتفة يلا نفتح البوفية الناس جاعت، وقابلوني لو حد عرف ياكل من كتر الخضة اللي إنتو فيها.. أحسن.

فُتح البوفيه.. المدعوون واجمون غير مدركين ما قد يصنعه جنون الحب، وفجأة انطفأت الأنوار، انسدل ظلام حالك بضع دقائق، ثم عادت الأضواء.. تلفّت الجميع فلم يجدوا العروسين، وبدأ تشغيل فيديو على الشاشات لنضال يقول:

- نوّرتونا، وشرفتونا معلش عملنالكم تربنه.

وفي طُرقة الفندق كان نضال يجذب رحمة منطلقين، وهي لا تفهم ما سيحدث قد فاجأها بغلق الأنوار، ولا تدري بم يفكر..دخلوا الأسانسير وصدورهما تصارع أنفاسهما لكثرة الجري.

رحمة:

- ناوي على إيه يا مجنون ورايح بيّا على فين؟

حاول تقمُّص ذور سي السيد مبالغًا في أدائه واضعًا سبابته على فمه محذرًا:

- هوووس ما اسمعش حسك.. الحريم حدانا تغمض عنيها، وتمسك إيد راجلها، وتسيبله نفسها.

تفاعلت معه بدلال طفولي:

- كلماتك أوامر يا سيد الرجالة وتاج راسي.

توقف الأسانسير.. خرجا للجراج منطلقين بين السيارات.. توقف نضال أمام توكتوك بدون سقف.. لونه أصفر، ومُزيّن بالورود، ولم

يعطها فرصة الاندهاش.. أركبها، وقاده مسرعًا بعدما ربط قماشة على عينها.. في الشارع كانوا لافتين أنظار المارَّة في وضح النهار لمظهر التوكتوك ولعدم وجود سيارات تزفهم، وربط غمامة على عين رحمة..

وصلا أمام ساحة المقابر فتح لها باب السيارة.. أمسك يدها قبلها، وساعدها في النزول ثم أمسكها، وخطا بها حتى قبر أبيها.. أزال القماشة من عينيها فدُهشت، ولم تتخيل أن يأتي بها هنا، وجدت قبر أبيها وأمه مطليين بألوان مبهجة وكتب عليهما:

"عرفتُ اللهَ بحُبِّك يا رحمة"

التفتتْ إليه، وغاصت في حضنه دون أن تنطق كلمةً ، فقط قادها إحساسها..

***

25

بعد شهور.. كان اجتماع عاجل مع مدير القناة، ومدير التسويق، ونضال تحت إمرة رجل الأعمال "سيد القرش" رجل ليس لديه وقت لسرد المقدمات في اجتماعاته يكفي سردها بعاطفية مصطنعة أمام الكاميرات أو في المؤتمرات الشعبية.. أشار للجميع بالجلوس وأطلق لهيب لسانه.

القرش:

- مبيعات شركتي "قزقز" تراجعت 30% بسبب قناتكم.

مدير التسويق:

- الفترة دي مكثفين الدعايا على قنواتنا لقزقز.

مدير القناة:

– يافندم قناتنا السبب إزاي؟

القرش:

– مهو لما قناتكم تسمح لسيادة المخرج يعمل حملة توعية للفلاحين هدفها المزارع يشغّل عقله، ويحاول نقل المحصول للسوق بأعلى سعر.. طبعًا ده قلّل كمية بيع الفلاحين محصول البطاطس لشركتي لأنهم فهموا إزاي يكسبوا أكتر، وده قلّل إنتاج الشيبسي وبالتالي مبيعاته.

نضال:

– حضرتك المفروض عضو مجلس شعب، ومهتم بمصالح الغلابة.. صح !!

اندفاع حمية الشباب لاحقته حكمة الرجل الأربعيني..

مدير القناة:

– يا فندم إيه أوامر سيادتك عشان نصلح غلطنا؟

انتهى الاجتماع بأخذ قرار وقف عرض حملة التوعية، وصناعة بدلًا منها حملة توعية أخرى تضع عاطفة بين المزارع والأرض للتأثير في المزارعين للاهتمام بالزراعة فقط، وتحذيرهم من سوء تخزين المحصول ونقله إلا عن طريق الخبراء، وبث الرعب بوجود فيروس زراعي جديد يؤثر في تخزين المحاصيل فور جنيها.. مع تكثيف عرض الفيلم الوثائقي

(تلك بدايتي دون خجل) لإعلاء مكانة سيد القرش في القلوب وجعله من المثل العليا وتدشين حملة توعية تحت اسمه.. "هنشري محصولك قبل ما تزرعه".. لتشجيع الشباب على العمل.

وهدَّد القرش لو تكرَّر عدم مراجعته فيما يعرض على الشاشة عمومًا.. سيوقف حملاته الإعلانية عن شركاته بالقناة، سيوقف التمويل بالملايين..

انفرد المدير بنضال قائلًا:

- إنت زي أخويا الصغير فلازم أديك خبرتي في المجال النجس ده.. سيبك من حماس الشباب وإنك تبقى البطل اللي هيحارب الفساد بتوعية الناس.. يا بني الجمهور أصلًا مش عايز حد يفوّقه من الخلاط اللي عايش فيه.. الجمهور عايز الهلس وبس لأن الهلس هو البنج اللي مخليه مش حاسس بنهش لحمه الحي فبلاش تخسر نفسك وفنك.. عشان لو وعيت الناس هيقولوا عليك عميل وإرهابي وبتخرب البلد..

نضال:

- طب مهو سيادتك قبل عرض الحملة كانت عجباك، ووافقت عليها تتعرض.

المدير:

– تخيّل رغم خبرتي.. ماكنتش أعرف للدرجه دي ممكن نأثّر على مصالحنا، وأديني اتعلمت،كنت فاكر التأثير بالأفلام والبرامج في تشكيل ثقافة ووعي المشاهد، وإن الإعلانات مجرد تأثير على مؤشر اختياراته الشرائية..لكن مش لدرجة إن الأميين يتعلموا ويزوودوا وعيهم وخبرهم العملية.

نضال:

– المطلوب مننا كمتلاعبين بالعقول نحافظ على نسبة الجهل، والفساد!!..

المدير:

– أو تبقى ذكي، وتزوّدهم.. وقتها هتبقى نجم كبير أوي عشان الكبار هيوافقوا على نجوميتك عشان بردوا تخدمهم وتقدم اللي يخدم مصالحهم.

نضال:

– حاسس إننا في فيلم قديم أوي، وأنت محمود المليجي.

المدير:

– طول ما فيه مشاهدين عقولهم ما اتغيرتش يبقى هنفضل في نفس الفيلم القديم.

خرج نضال من الاجتماع مثقلًا مهمومًا يحمل أوجاع وطن.. لم يشعر بكثرة المشي.. قطع مسافة طويلة حتى وصل قرب بيت، وبجوار سور حديقة خرج كلب صغير ينظر له فضرب نضال حجرًا بقدمه أصاب الكلب.. صرخ خفيفًا. ودخل سور الحديقة.. لحظات خرج فريق لا يقل عن عشرين كلبًا يَعْوُون مُنطلقين تجاه نضال.. فانطلق هاربًا ناسيًا وطنه وهمومه.

شكر وتقدير

بين ضفاف وادي أم خشيب بسيناء الحبيبة، وسلاحي على كتفي، وأنا فرد بالقوات المسلحة، وتحديدًا في آخر خمسة أشهر من خدمتي حيث صرتُ أحد حكمدارية تخصصي باللواء، بدأت كتابة ما عشتُه في خيالي سنين، ولم أستطع كتابة حرف إلا بعد اكتمال أدق تفاصيل قصتي.

فالحمد لله الذي جعل الحمد عبادة ليجازينا على شكره بفضل كرمه وسعة رحمته ولطفه، وبعد شكر الله تعالى على توفيقه بمنه وفضله أن أتممت حلمي بوادٍ غير ذي زرع.. بين أمواج الخطر والملل وقسوة الجبل ومشاريع الحروب ومداهمات الإرهاب ونزح الطرنشات وجفاء القادة.

أتوجّه بالشكر لمن عونهم لي أهم دعائم روايتي:-

إلى منهل الرضا والاجتهاد، وحب العمل والتفنن في جعل أبسط تفاصيل الحياة وأدقها ابتغاء مرضاة الله تعالى.. إلى أبي العظيم رحمه الله ذلك المنهل الذي اختفى من حياتي وأنا بين أحضان الجبل في منتصف روايتي فلم أهنأ بنظرة منه لها، ولم أنعم حتى بالصلاة عليه وجئتُ عزاءه غريبًا في إجازة مدتها **48** ساعة بعد دفنه.. إلى الذي غرس فينا الفكر

وسقاه ورعاه بكلمات سهلة باسمة، وحين كبرت اكتشفتُ تلخيصه أمَّهات الكتب في أحاديثه التي سقانا بها الحب ومتعة الأسرة والسكن. فوجدت نفسي مجبرًا على غرس الفكر والسعي للخير ببرامجي وكتاباتي ولم أستطع صناعة التفاهة والانحلال كما هو السائد في أهل مهنتي.

وإلى الفطرة التي تمشي على الأرض.. أمي الحبيبة حيث إبهار أفلام السينما وحتى تقنية **3d** لا تساوي شيئًا في حواديتها وسيطرتها على عقلي منذ كنتُ طفلًا في حِجرها. تملّكني سِحر أسلوبها فنبت خيالي بين حنايا صوتها، وأحببت الحياة ما دام رضاها أنفاسي ..

إليكِ يا ملكتي الحبيبة يا من عرفتُ الله بحبك يقينًا وسأظلُّ طفلك الخاشع في محراب حواديتك .

وشكرا :-

د/ عبدالرحمن المشد

إنجي مجدي

جندي/ جهاد حسيني حسنن

الكاتب

- محمد عادل محمد عبد العال المشد.

- ليسانس آداب – قسم إعلام / صحافة – جامعة عين شمس .

- مُعد ومُخرج العديد من البرامج :

1) البرنامج المباشر "عيد" للأطفال وتقديمه – قناة الناس الفضائية.

2) إخراج حملة "بيحبنا وبنحبه " تأليفها عن مواقف الرسول مع الأطفال – قناة سمسم للأطفال الفضائية .

3) تأليف الفيلم القصير" انتحار ممتع" وإخراجه – قناة صدى البلد الفضائية .

4) كتابة وأداء صوتي لحواديت برنامج "قصاقيص" – قناة الندى الفضائية .

5) كتابة حلقات الأطفال لبرنامج "ساعة مع شريف" للإعلامي / شريف مدكور – قناة المحور الفضائية .

6) كتابة حلقات الأطفال لبرنامج "وماذا بعد" للإعلامية / رولا خرسا – قناة LTC الفضائية .





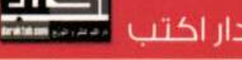
بَشَهْدُكم يوم فرحي.. إتجوزت رحمة لإنها رخيصة .. أوي.

كلمات قالها نضال للمعازيم فور دخوله قاعة الأفراح, وهو يدفع عَرُوسَة على كرسيها المتحرك, ولكن .. كيف؟.. كيف يقول هذا الكلام في اليوم الذي من أجله تقدم ٣٥ مرة لخطبة حبيبته؟, ولم يمل من رفض اهلها له.. بعد قصة حب استثنائية بملامح عربية بين ضفاف المقابر ..

كيف؟!

Cover by #ahz_art

9789774885129



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الضحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

01144552557 E-mail : daroktob1@yahoo.com